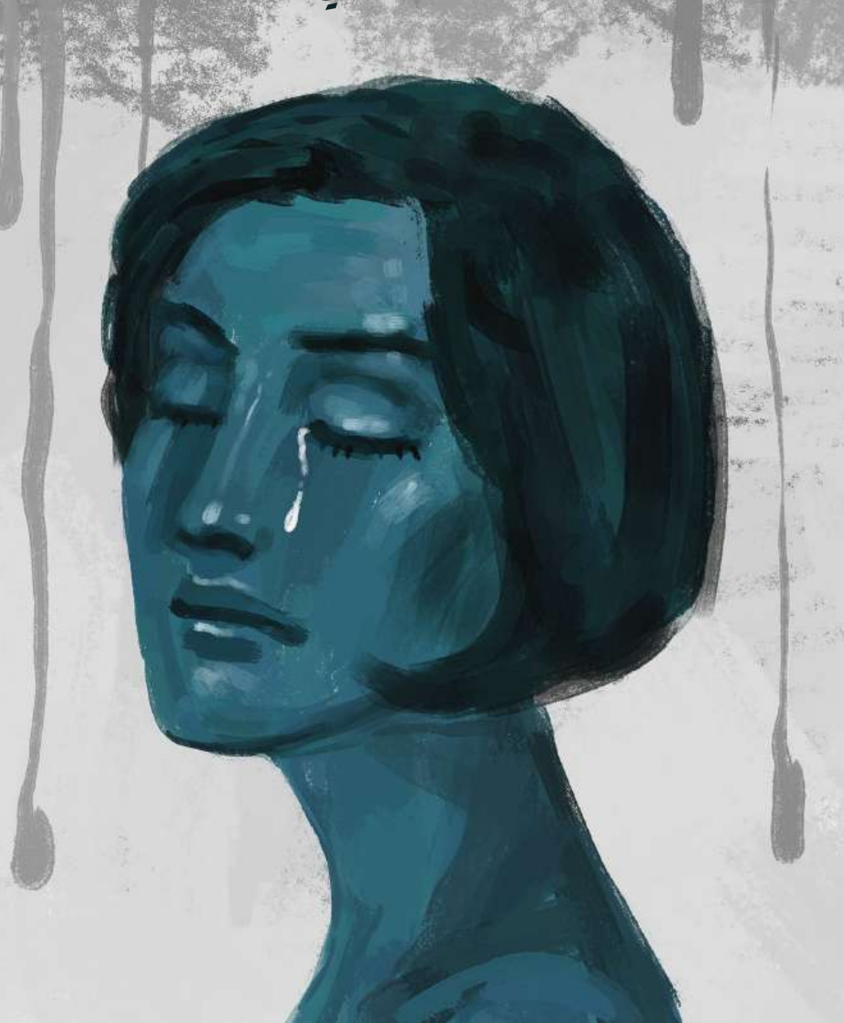
يوكيو ميشيما

خيانة الفضيلة

ترجمة ميسرة عفيفي




تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب

خيانة الفضيلة

تأليف
يوكيو ميشيما

ترجمة
ميسرة عفيفي



خيانة الفضيلة

美徳のよろめき

يوكيو ميشيما

由紀夫 三島

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

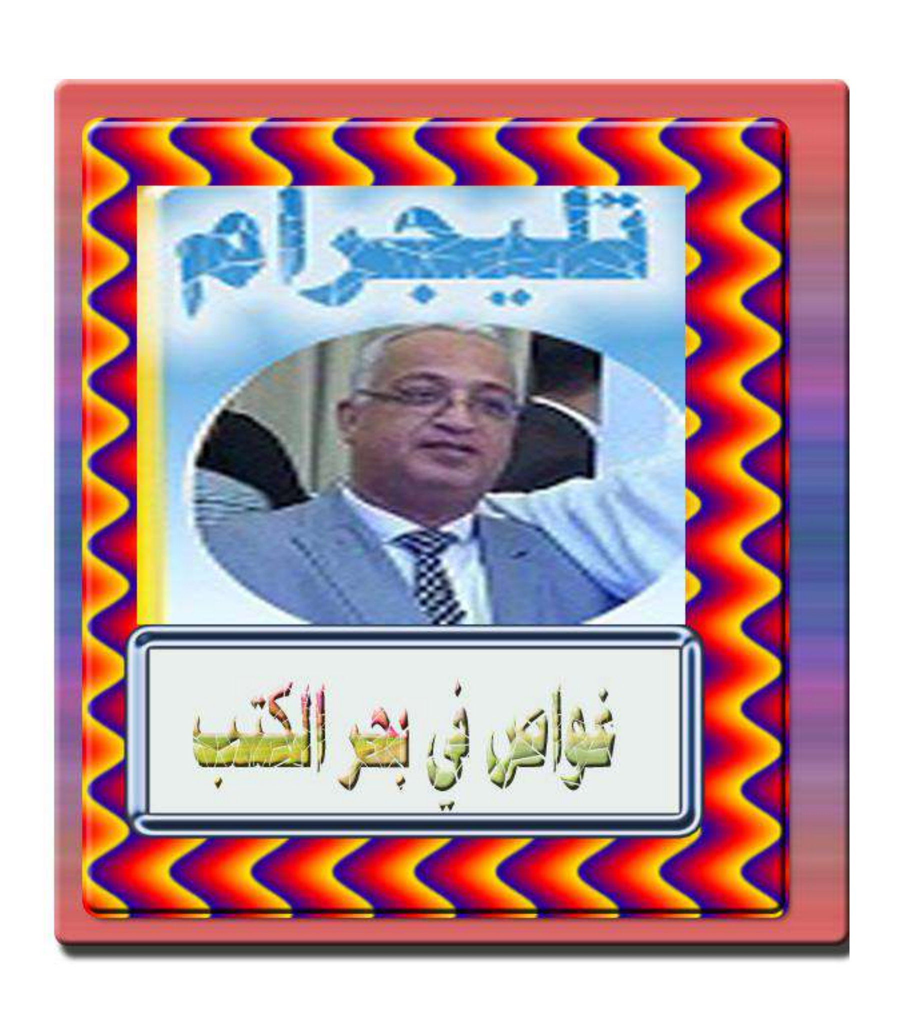
يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٨ ٣١٤٨ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة اليابانية عام ١٩٥٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

المحتويات


تليجرام
غواص في بحر الكتب

الفصل الأول

رغم عدم تقبُّل الناس بدء الحديث بقولٍ منعدم الحياء، إلا أن السيدة ستسكو كوراقوشي قد وُهبت جسدًا شديد الشهوانية، مع أنها لا زالت في الثامنة والعشرين من العمر، وقد تربت ستسكو في بيت أرستقراطي يشتهر بالشدة والحزم في التربية، ولأنها لم تكن لها أية علاقة بمثل هذه الأشياء التي تعوض الشهوانية؛ مثل البحث العلمي أو الأخلاق أو الحوار الرفيع أو الآداب؛ لذلك من الأفضل القول إن القدَر كتب عليها الانجراف في بحر من الشهوانية بوداعة وجِدية. إن السعيد حقًّا هو الرجل الذي تحبه مثلُ هذه السيدة.

كانت ستسكو من «عائلة فوجي»، وهي عائلة راقية وإن كانت ينقُص أفرادها اللباقة في الحديث. يغيب ربُّ الأسرة كثيرًا عن المنزل بسبب مشاغله الكثيرة؛ لذلك كانت الضحكات لا تنقطع عن العائلة التي أغلبيتها من الإناث، ولكن أيضًا كانت اللباقة تميل إلى التناقُص بشكل مستمر. تَربَّت ستسكو منذ الطفولة متعودة على النفاق، وأية عائلة راقية تكون بالضرورة كذلك، وأصبحت لا تتصور ولا في أحلامها أن ذلك شيء سيئ، ولكن بالطبع الذنب ليس ذنبها مطلقًا.

لكن أصبح ذَوق ستسكو في الملابس وفي الموسيقى رفيعًا وراقيًا بفضل تلك البيئة. رغم نقص ملَكة اللباقة في الحديث لديها، إلا أن من يسمع حديثها الجافَّ المغلف بالحنان؛ ذلك الحديث الذي يتغير بسرعة داخل فمها، ذو سرعة ثابتة وأسلوب محدد في اختيار الألفاظ، يستطيع أن يفطِن إلى التربية الراقية التي تَربَّتها ستسكو، حتى ولو سمع ذلك من خلال الهاتف فقط، وهو شيء يُظهِر بقوة خاصية من خصائص طبقة اجتماعية محددة لا يستطيع عصاميٌّ من الطبقات الدنيا أن يقلدها مهما حاول ذلك.

كانت ستسكو في غاية الترف في عصرنا الحالي؛ حيث يمكن اعتبار أن عدم امتلاك أي طموح هو ترف بالفعل. يستطيع الترف من وجهة نظرها أن يكون بديلًا عن الجمال، والسبب أن الرجل يفضِّل المرأة المترفة حتى ولو لم تكن جميلة، عن امرأة من البيوت الخلفية الفقيرة.

رغم وقوعها مرة أو مرتين في الحب في فترة صباها إلا أن ستسكو تزوجت الرجل الذي اختاره لها والدَاها، وعلَّمها زوجها إيتشيرو كوراقوشي طُرق الحب التي يفضِّلها رجال المجتمع، وأخلصت ستسكو لذلك، ثم أنجبت له ذكَرًا.

ولكن كانت هناك أشياء تنقُصها. لو لم يكن قد علَّمها زوجها طُرق الحب تلك، ربما لم تفكر ستسكو في الأشياء الموجودة على الضفة الأخرى من النهر، ولكنها بفضل ذلك التعليم قد ذهبت إلى ضفة النهر، وسلَب حفيف الحشائش التي على الضفة الأخرى كل تفكيرها، ولكن ها هو زوجها يغُطُّ في نوم عميق وطويل على هذه الضفة من النهر، ورغم أنه ليس كبيرًا في العمر إلا إنه بدأ عادة نوم القيلولة، وبعد مرور ثلاث سنوات على زواجهما أصبح لقاؤهما الزوجي على فترات متباعدة.

كانت ستسكو في بعض الأحيان تتذكر القُبلة الوحيدة التي تبادلتها مع رجل آخر غير زوجها قبل الزواج. كانت مع شاب يُسمى تسوتشيا في نفس عمرها تعرَّفت عليه في أحد المصايف. تلك القُبلة لم تكن بالضرورة صبيانية، إلا إنها كانت متواضعة بدرجة كبيرة، لم تزِد على أن ستسكو أحسَّت بلمسة سريعة لشفاهٍ جافة للشاب المتردد المرتبك. مقارنة بذلك كانت القبلات التي تعلمتها من زوجها متنوعة وكثيرة بنحو بعيد.

كانت قبلة ذلك الفتى، لمرة واحدة فقط، ولمدة لحظة سريعة وخرقاء مما رفع على العكس من أهميتها داخل ذاكرة ستسكو. في أوقات الفراغ الممل، تسيطر على ستسكو خيالات تتصور فيها نفسها وهي ترد على تسوتشيا بالقُبل المتنوعة التي تعلمتها من زوجها، وفي كل مرة تشعر بالرعب من تلك الأفكار. لم يكن ذلك غرامًا أو حبًّا بأي حال، بل كان مجرد خيالات كالتي يهيم فيها التلميذ المخلص وقد تحوَّل فيها إلى أستاذ، يقول: آه لو كنت وقتها في حالتي الآن، لكنتُ علَّمتُه الكثير والكثير منها.

بالطبع كانت ستسكو تحمل نظرة أخلاقية متحجرة، لكن الأمر فقط أنها كانت متسامحة إذا ما تعلَّق الأمر بالخيال. هذه المرأة المهذبة لم يكن إحساسها بالخجل يعمل إلا في نطاق التهذيب فقط، وبالتالي مهما رأت من أحلام لم تكُن تُحس معها بالخجل، وفيمَ الخوف من رؤية أحد ما لحُلمٍ تراه بمفردها؟

تقابلت ستسكو بعد زواجها مع تسوتشيا عددًا من المرات مصادفة. تقابله أحيانًا في حفلات الرقص، وتقابله أحيانًا في مطعم أو مقهًى في المدينة، وأحيانًا في بهو استقبال الفنادق، أو صالات الانتظار في المحطات.

كان تسوتشيا دائمًا يتأمل ستسكو بوجه تبدو عليه الحَيرة ويتبادل معها كلمات مقتضبة .. لم يتغير تسوتشيا مطلقًا عما كان عليه في العشرين من عمره؛ ذلك الجسد النحيل ولكنه قوي، ولون الوجه الأزرق الشاحب قليلًا، وتلك الشفاه الشاعرية للغاية، ومظهره الأنيق، وذوق ملابسه العادية غير الرسمية، والسلبية التي يكون عليها وكأنه يهاب من شيء ما. لا تدري ستسكو جيدًا كيف يستمتع هذا الشاب بحياته، وهي تعتقد أنه من العجيب أن هذا الشاب يعيش بشكل طبيعي في مكان ما، وهي تعيش هنا بشكل حقيقي.

لو أن تسوتشيا لم يستطع تمامًا نسيان كل شيء بخصوص ستسكو، لربما كان الأمر يتماشى مع المنطق، ومن الأفضل أن تعتقد ستسكو ذلك، ولكن كلما اعتقدت ذلك صار الأمر متماشيًا مع المنطق بشكل زائد عن الحد.

يتقابلان في لقاءات عبر صدف عابرة، في بهوِ استقبال الفنادق، في المقاهي، في صالات الانتظار بالمطار، وفي بعض الأحيان بشكل غير متوقع في طرقات المدينة، يتوقفان للحديث لمدة دقيقتين أو ثلاث، وأثناء ذلك تنظر ستسكو خلسة إلى شفتي تسوتشيا؛ توجد هذه الشفاه تمامًا في نفس ارتفاع عينيها. عندما يكون اللقاء في الشتاء تكون الشفاه متشققة، وعندما يكون اللقاء في الصيف تكون جافة. الشفاه التي تعرفها ستسكو هي شفاه الصيف.

لا تحس ستسكو على الإطلاق ببقايا ندم على أن جسديهما تلامسا فقط بالشفاه لمسة خفيفة سريعة للحظة، وبعدها افترق كلاهما عن الآخر وكأن شيئًا لم يكن قد حدث، ثم عاش كل منهما حياته. إن ذلك في الأغلب عبارة عن تجربة شاعرية، تحدث ولو لمرة واحدة حتى لغير الشعراء.

في اليوم الذي تُقابل فيه تسوتشيا صدفة، أصبحت عادة ستسكو التذكارية في كل مرة أنها عندما تعود إلى المنزل تقبِّل سريعًا شفاه وحيدها الصغير «كيكو». تحب ستسكو منذ صغرها الفتيان النحاف، وتأمل عندما يكبر كيكو أن يصير جسده نحيفًا وخفيفًا.

لدى ستسكو العديد من الصديقات، وهن جميعًا يحببنها لشخصيتها المرحة رغم فقر اللباقة لديها. صديقاتها جميعهن متزوجات ولكن تحدث لهن حكايات غرامية هنا وهناك، فتصبح ستسكو المستمع المخلص لهن. الرجال في هذه الحكايات التي تسمعها،

كلهم مثل قناصة الاغتيال يتخفَّون في أرجاء المدينة، وينتهزون حدوث أي ثغرة من المرأة يستغلونها بلا أي تهاون أو كسل. ولكن على أرض الواقع لم يسبق أن قابلت ستسكو هذه النوعية من الرجال.

لذلك إذا سُئلت ستسكو عن ذوقها من الرجال، ترد بذكر اسم ما لأي من الممثلين العاديين، ولكن ذوق ستسكو كان شهوانيًّا تمامًا؛ فكان يكفيها في الرجل أن يكون ذا وجه جميل بدون عنف ويكون ذا جسد متوازن ومرن، وقبل كل شيء يجب أن يكون شابًّا.

ليس لستسكو أي اهتمام بأشياء مثل طموح الرجل، أو همته في العمل، أو تفوقه الذهني والعقلي؛ فيا له من شخص مثير للسخرية ذلك الذي يتجه بقوة نحو تحقيق المثالية أو إنجاح أعماله بما يمتلك من قوة فياضة، وهو رجل دميم الوجه ضخم الكرش.

ويا له من تحفة نادرة ذلك العالم الأكاديمي العالمي الذي يكون رثَّ المظهر! دائمًا ما يُقال إن الرجل المتحمس لعمله يبدو جميلًا، كيف ستتحسن دمامة الرجل الدميم أصلًا، من حماسه للعمل؟ ستسكو التي تؤمن بشدة وصرامة في نظرة المرأة للعالم، لم تكن تسبب لها وجهة نظر الرجل وحكمه حيرة مطلقًا، مثل نساء النخبة الفكرية اللائي يملأن الدنيا هنا وهناك.

تتلاقى النظرة الطبقية العنصرية التي تملكها ستسكو بلا وعي، وهذا الحكم بشكل غريب في نقطة ما؛ فهي لا تحترم الفطرة البرية، وهي تعتقد أنه لكي يكون الرجل جذابًا، هناك ضرورة إلى الأناقة التي تكلِّف مالًا وإلى درجة ما من اللباقة التي تولِّدها درجة معينة من التربية العالية.

في أحد الأيام سمعت من صديقة صريحة وأمام جمع من الصديقات وبأسلوب تلقائي لا يَخفى ولا يتجمل وهي تعترف بأحد اكتشافاتها: «لقد اكتشفت شامة. بل هي شامة سوداء كبيرة. شامة لم أكن أنا شخصيًّا أعرف بوجودها على مدى ثلاثين عامًا منذ ولادتي.»

قالت الصديقة ذلك بصوت عالٍ. في إحدى الليالي حيث كان زوجها غائبًا عن المنزل في إحدى رحلات للعمل، بحثت في جسدها تفصيليًّا باستخدام مرآة اليد، فاكتشفتها متخفية بين الطيَّات تشبه حبة فراولة صغيرة لكنها سوداء.

ولكن الصديقة ذهبت بهذه الحكاية التي بلا حياء وجعلتها في الحال درسًا من دروس الحياة: «لذلك لا يجب على الشخص أن يزهوَ بأنه على علم تام بذاته؛ فرغم ثلاثين عامًا من مصاحبة الذات، كانت توجد هناك شامة لا أعرف عنها شيئًا.»

في تلك الليلة، وبجوار زوجها الغارق في النوم تذكرت ستسكو حكاية تلك السيدة، واحمرَّ وجهها لذلك. أين يا تُرى تختبئ شامتي التي لا أعرف عنها شيئًا؟

بعد أن ينام زوجها، وتنشط عيون ستسكو أكثر، يبدأ وقت انغماسها في اللعب بالخيال، وعندما يحتدم ذلك تحاول إيقاظه، ولكن بعد أن يرفض مرتين أو ثلاثًا لا تحاول إيقاظه مرة أخرى؛ لأنها اعتقدت أن زوجها لو استيقظ الآن سيصبح عقبة في طريق تخيلاتها.

قبل أن تتزوج ستسكو، عندما كانت تتمشى على شاطئ البحر، لفَّ أحد الرجال فجأة ذراعه حول كتفها، وعندها تذكرت ثِقَل ذراعه، وعضلات عضده القوية عندما قرصتها، ولكنها لم تستطع تذكر وجه ذلك الرجل على نحو مؤكد. على الرغم من أنها ذاكرة باهتة إلى هذا الحد، إلا أنه مرت الساعات سريعًا في اجترارها هذه الذكرى.

ليس ذلك فقط، بل أحيانًا عندما يدفعها كتف رجل غريب، في القطار المزدحم نهارًا، تظن ستسكو فجأة أنها عرَفت هذه الكتف من قبل. وعندما تنظر إلى الوجه تجده رجلًا لا تعرفه. وليس من المؤكد أن كتف ذلك الرجل ربما تُشبه كتف شخص تعرفه. في تلك اللحظة، تقول ستسكو لنفسها: «إنني أشبه العاهرات.» ثم تشعر ببعض الرضا.

يذهب «كيكو» إلى روضة الأطفال كل يوم بصحبة الخادمة، وفي العودة يصطحب معه أصدقاءه ليلعبوا طوال فترة ما بعد الظهر في حجرته أو خارج المنزل. كان زوجها فيما عدا الأيام التي يخرج فيها معها، في العادة لا يعود إلا في الثانية عشرة، وأحيانًا يتأخر حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وهذه هي طبيعة عمله. لم تكن ستسكو تعرف الغيرة؛ لذلك لم يكُن لديها مشاعر تملأ بها وقت الفراغ الزائد عن الحد.

لم يكُن أمامها إلَّا مصاحبة صديقاتها؛ تدعوهن لحفلات الشاي، أو يتم دعوتها. تذهب معهن للتبضُّع، أو لمشاهدة المسرحيات، أو الذهاب إلى دُور السينما.

ومع تكرار ذلك، عرفت ستسكو أنها «زنديقة» بينهن. لم يكن لديها شعور بالاحتقار تجاههن، ولم يكنَّ يسبِّبن لها أي إزعاج، ولكن اهتمامات ستسكو تختلف قليلًا عن اهتماماتهن. ستسكو هادئة، راشدة، محبوبة، ليس لديها أي طموح ولا تملك أي تربية أو تعليم زائد عن الحد، إلَّا إنها تشعر أنها وحدها تختلف نوعًا ما عن الأخريات.

ربما لا يزيد الأمر عن أنه ناتج من جهل ستسكو أو عدم معرفتها بالعالم من حولها، ولكنها لم تستطع أن تفهم أن الأخريات أيضًا يشعرن بما تشعر هي به.

هذا الوضع انهار فجأة بعد حادثة ما صغيرة؛ عندما ذهبت مع زوجها إلى حفل راقص، أثناء رقصها مع تسوتشيا لإحدى الأغنيات، قال لها: «عندي موضوع أريد أن أتكلم معك فيه. سأنتظرك على الرصيف في محطة القطار القريبة من منزلك غدًا الساعة الثالثة

بعد الظهر.» في اليوم التالي لم تذهب ستسكو إلى مكان الموعد، وانتظرت في منزلها لفترة طويلة لتختبر هل يملك تسوتشيا الشجاعة إلى أن يأتي لمنزلها أم لا، لم يأتِ تسوتشيا. احتقرته ستسكو جدًّا، وبعد أن ظلت طوال اليوم غاضبة عرفت ستسكو أنها وقعت في حب تسوتشيا.

الفصل الثاني

لم تكن ستسكو وقعت في «حب غريب». كانت امرأة غير قابلة لذلك. إذا كان الأمر كذلك فحالتها هذه لا تتناقض مطلقًا مع ترفها وغناها.

لقد فكرت ستسكو في أن تبدأ حبًّا أخلاقيًّا، حبًّا يدور في الخيال فقط؛ فيكفي عدم التسليم تحت أي ظرف. سكرت تمامًا لمدة ثلاثة أيام في حلاوة لذة الخيال، وبعد أن هدأت أخيرًا اتصلت بتسوتشيا هاتفيًّا؛ تعمدت أن تذهب وتتصل من هاتف عام.

وفي هذا الاتصال قالت ستسكو بشكل سريع وعلى وتيرة واحدة، إنها لم تستطع الوفاء بالوعد بسبب ظرف طارئ حدث لها، وإنها اليوم ليس لديها شيء وممكن أن يتقابلا، وإنه إذا كان لقاءً له غرض سيئ فهي ترفضه، وإن زوجها يقول إنه لا يمانع أبدًا أن تصادق زوجته رجلًا إذا كانت صداقة بريئة. ولكنها أثناء تحدثها بذلك كان صدرها في اهتياج عارم.

ووافق تسوتشيا على ذلك، وتقابلا في المكان الذي اتفقا عليه، وعلى الفور أصاب ستسكو اليأس؛ فلم يكن وجه تسوتشيا وجه العاشق.

ليس هذا فقط، بل لقد كان تسوتشيا لديه بالفعل حجة وسبب ظاهري؛ وهو أن أخته الصغرى تريد أن تقدم معروضات في البازار الخيري الذي تقيمه ستسكو وصديقاتها لمساعدة المعاقين. بالطبع وافقت ستسكو، ولكنها كانت تعلم أن تسوتشيا دبَّر خصوصًا هذه الحجَّة من أجل إخفاء غايته.

كانت خدوده بعد حلقها خضراء اللون، وكان يرتدي ملابس جيدة الصنع، في بداية فصل الشتاء، ولكن الشعر الذي على ظهر كف اليد الظاهرة من كم القميص ذي الأزرار المصنوعة من حجر إسكندرلايت، وغزارة شعر الصدر، وعلى الأغلب غزارة الشعر في الجسد كله، يجعلها تسترجع ذكريات انطباع صيف الماضي، وتسللت ستسكو لماذا نسيت لفترة

طويلة هذا الانطباع عن تسوتشيا. لم يسبق أن صعِد لوعيها جسد هذا الرجل حتى الآن فيما عدا شفتيه.

كان تسوتشيا كما المعتاد، يبدو متعجرفًا، ثم يصبح متواضعًا، وكان قلقًا غير ساكن، ولا ينظر إلى ستسكو من الوجه مطلقًا. يتحدث بكلمات قليلة وعندما تنقطع كلمات ستسكو، يصمت هو أيضًا. ملامح وجهه التي يبدو عليها الملل أثناء صمته، لا تخاف ولا تخجل من أحد، وقد تنبه ذكاء ستسكو لذلك سريعًا.

ولكن ستسكو الشديدة الحذر اطمأنت لذلك على العكس وهي تفكر: «إذا كان هذا الرجل هو شريكي، إذن سيسير غرامي الأخلاقي على ما يرام.»

ولكن كانت كل افتراضات ستسكو تلك خاطئة؛ فهي بسبب مللها وتعبها من حياتها الزوجية، وأيضًا بسبب انجذابها تجاه تسوتشيا، كانت تعمل على إبراز الأمور الآمنة فقط، ولكن إذا كان الأمان هو الشيء الهام والأساسي فالمفروض أن الصداقة وحدها كافية ولا داعي للحب.

اتفق الاثنان على اللقاء مرة أخرى بعد ظهر الأربعاء من الأسبوع التالي.

كان تفكير ستسكو عجيبًا، فهي قد اطمأنت لأن تسوتشيا لا يحبها كما كانت تعتقد، ولكن إذا كانت ستسكو تحب تسوتشيا حقًّا، فمن المفروض ألَّا تقدر على تحمل هذه الفكرة، إلا أنها على العكس شعرت معها بسعادة خفية. والسبب، حسب طريقة ستسكو في التفكير، أن ذلك ولا غيره هو الدليل الوحيد على أن تسوتشيا لا يحب امرأة أخرى غيرها.

وأيضًا لأن الرجولة لديه في حالة «سُبات»، هو ما جعل ستسكو تشعر حقًّا بالسعادة. لقد تجذَّر داخل ستسكو كره الرجل ذي الغريزة الجنسية المتأججة، الرجل المندفع، وربما يكون ذلك من تأثير زوجها النائم على الدوام. ليس بالضرورة أن تكون نظرية أن المرأة التي ملَّت حياتها الزوجية تلاحق الرجل المندفع غريزيًّا بعنف، نظريةً صحيحة على الدوام.

غالبًا ما يتأخر طمث ستسكو عن موعده، وغالبًا ما تطول فترته. ويهاجمها خلاله حزن مجهول لا تعرف كنهه. هذه الفترة يمكن تسميتها بالحِداد الأحمر.

عندما تكون بمفردها تغلق الأبواب وتتعرى تمامًا ثم تتأمل هيئتها تلك، وبذلك تخفُّ قليلًا حالة الحزن لديها. لا تملك ستسكو جسدًا يمكن نعته بالوافر الغني؛ يتدلى الثديان اللذان يشبهان قليلًا ثديَي طفلة، وكأنهما صمغ شجرة تجمَّد فوق الصدر المنبسط، ويعطي كلاهما ظهره للآخر في غضب. أجمل شيء فيها هو ساقاها. رغم أن نصف ستسكو العلوي ضعيف لا يُعتمد عليه، إلا أن نصفها السفلي به قوة ما؛ تملك ساقين طويلتين مستقيمتين

نادرًا ما يكون لدى اليابانيات مثلهما، وتبدو البشرة تحت الجزء الساخن القريب من نار المدفأة وكأنها قد امتلأت ببقع حمراء خفيفة تحت الجلد.

تبدو ساقها وهي عارية وكأنها ترتدي جوربًا حريريًّا ضيقًا. وعندما ترتدي الجورب تبدو الساق كما لو أنها عارية. فكرت ستسكو أن تسوتشيا لو طلب بإلحاح وإصرار، فمن الممكن أن تتركه يُقبِّل هاتين الساقين.

تظهر عظام الكتفين قليلًا، والمنكبان ليسا عريضين أبدًا، ولكن خط الكتف يمتاز بالجمال بسبب أنه يرسم زاوية ذات ميل خفيف، والذي يُسعِد ستسكو أكثر من أي شيء آخر هو بياض بشرتها الذي لا تشوبه شائبة، وهو بياض خالص متكامل، يختلف عن بياض الغربيين الذين يُبرز بياض بشرتهم عروق الدم وكأن البشرة شفافة بها رطوبة سلسة في كل مكان، ويزيل بريق الضوء الخفيف أي أثر له ولو قليلًا.

وبينما هي مأخوذة اللُّب بصورتها تلك داخل المرآة التي لا تخجل منها، تهدأ حالة الحزن التي تشعر بها. حالة الحزن تحدث من وقوعها في الحيرة بسبب هروب مشاعرها من جسدها مع كمية الدماء القليلة التي تفقدها، ومن أجل التخفيف من تلك الحالة يكون الحل هو إعادة الألفة مع جسدها بشكل كامل؛ فترجع مشاعرها التي تدفقت بعيدًا عنها، وتعود مرة أخرى إلى داخل جسدها، فتُخزَّن داخل الجسد، وتهدأ الثورة .. وبعد دقائق تبدأ مرة أخرى حالة الإشباع الكامل للجسد الساخن الخامل.

لم ترسم ستسكو ولا حتى في أكثر أحلامها خيالية في منتصف الليل، صورة لتسوتشيا وهو يهجم عليها أو يغرز نفسه فيها، ولكنها فقط تحلم بتلامس بشرتها السلسة الشديدة البياض مع بشرته الكثيفة الشعر ذات العضلات القوية. ويكون إحساسها بذلك جافًّا. لو تتذكر في تلك الأيام التي يتعمق فيها الشتاء، إحساس مسح البشرة المبللة من عرَق قيظ الصيف بمنشفة سميكة، إنه إحساس لا يزيد عن إيقاظ بريء، يشبه تذكر ذلك الإحساس.

كانت هناك حدود لطاقة الخيال التي تتمتع بها ستسكو حتى عندما تنظر إلى صور ورسومات كانت قد نسيتها مدة طويلة بعد أن اشتراها زوجها وخزَّنها في أدراج خزانة الليل، لم تكن ستسكو تستطيع فهم سبب ملامح النشوة إلى حد التشوُّه المريع. كان رأيها أن ذلك لا بد وأن يكون مبالغة شديدة أو تمثيلًا.

آه .. ما أطوله من وقت، وقت ما بعد الظهيرة هذا! كانت ستسكو أحيانًا تحمل مقعدها المصنوع من الخيزران وتجيء به إلى جوار الشرفة الفرنسية الطراز، وتحاول اختبار إلى أي مدًى تستطيع تقليد التماثيل، وتظل وقتًا طويلًا لا تقوم بأي حركة ولو ضئيلة، ولكن

هذه المحاولات لا تستمر أكثر من خمس دقائق. ولكن حتى لو تحركت، فكأنما التمثال لا زال موجودًا داخلها.

بدأت أشعة الشمس في هذا النهار القصير، في التقهقر بمجرد أن تخطَّى الوقت الساعة الثانية ظهرًا، ومع تراجع أشعة الشمس التي كانت تصل إلى الصدر في اتجاه البطن، تدريجيًّا بدأ الصدر الذي أصبح في الظل يبرد قليلًا، ورغم ذلك لم تحاول ستسكو القيام بإزاحة المقعد نحو المكان المشمس؛ فهي تحاول معرفة كُنه شعور التمثال الواقف في صمت وقد انزاحت من عليه أشعة الشمس بهذا الشكل، مثل انسحاب الجَزر. يا ترى ما كُنه هذا الشعور البرونزي؟ انعدام المقاومة تجاه العالم الخارجي، بل والرفض المطلق لإدخال هذا العالم الخارجي ولو خطوة واحدة داخلها.

الفصل الثالث

يوم الثلاثاء من الأسبوع التالي. عندما جاء ذلك اليوم كانت ستسكو غارقة في متعة التأنق والتزين بالمساحيق من أجل هدفٍ معين له جِدة وحيوية لم تتذوقها ستسكو منذ فترة طويلة، ولأنها كانت مغرمة بشدة بالملابس الداخلية، فقد ارتدَت إزارًا داخليًّا لونه بنيٌّ غامق، طرف ذلك الإزار مزيَّن بدانتيل صُبغ بلون أزرق خفيف مثل سماء الشتاء الصافية، وارتدَت فوقه فستانًا شفافًا بلون بنيٍّ فاتح، وضعَت عطرها المفضل دائمًا «جوي» لجان باتو.

ولما قابلت تسوتشيا، وجدَت وجهه لا يختلف عما هو عليه دائمًا. لا تبدو عليه التغيرات التدريجية المتوالية للعواطف. هل تختفي داخل ذلك الشاب الأنيق أفكار أخلاقية متحجرة بشكل كبير وتفوق ربَّما ما لدى ستسكو نفسها؟

وكأن ذلك ينعكس على الفور على ستسكو؛ فرغم أنها تلتقي تسوتشيا بتشجيع منها، ولكن يصبح لكلامها نبرة وعظ وإرشاد؛ فتستميت في الشرح له أنها كزوجة وكأم فهي مقيدة، ولكن من جهة أخرى تقف موقف الدفاع عن نفسها المقيدة تلك من أجل أن تُعامل تسوتشيا العازب معاملة الأطفال، رأت ستسكو وجود ضرورة للتأكيد على أنها زوجة وأم بشكل كافٍ.

قال تسوتشيا فجأة إنه لا يريد أن يسمع شيئًا عن الأطفال. سألته ستسكو مرة أخرى هل من الأفضل أن تتحدث عن زوجها؟ أجاب تسوتشيا بالإيجاب، ولم يكُن تسوتشيا يُظهر استمتاعًا خفيًّا بسماع أي حديث بالقدر الذي يستمتع به عند سماع حديثها عن زوجها، ولكن ستسكو لم تكن تروقها ملامح السعادة تلك.

ومن أجل أن تستحثه قالت ستسكو: «الليلة يجب أن أرجع في الساعة العاشرة مساءً، ولكن العاشرة هي الحد الأقصى، فيجب أن أعود قبل ذلك بقدر الإمكان.» وحاولَت أن تجعل

تلك الكذبة وكأنها حقيقية فقالت إن عادة زوجها أن يعود إلى البيت قبل العاشرة والنصف مساءً مهما تأخر، وستصبح تلك الكذبة هي الحبال التي قيدَت بها نفسها واستمرَّت بعد ذلك.

ولأن تسوتشيا سعِد للغاية بحديثها عن زوجها؛ أصبح الآن عليها الدور أن تسمع منه عن ماضيه مع النساء. بدأ تسوتشيا في الحديث متلجلجًا بعد أن تشعَّب في مفترقات طرق كثيرة، ولكن عندما وصل الأمر إلى البوح باسم أول حبيبة له، تحركت يد ستسكو حركة مفاجئة جعلَتها هي نفسها تمتعض منها، فضغطَت بأصابع يدها على فمه.

صمت تسوتشيا وقد احمرَّ وجهه قليلًا ودُهشت ستسكو؛ هل كانت هذه الحركة المفاجئة من أصابعها من أجل منع فم تسوتشيا من الكلام أم أنها أرادت فجأة أن تلمس تلك الشفاه.

عند السير في المدينة، اعتقدت ستسكو أن تسوتشيا تنقصه الحساسية؛ فلم يبدُ عليه إطلاقًا أي وعي بأنه يسير في الطرقات مع زوجة رجل آخر. لم تكُن ستسكو، التي تريد أن تشعر بحالة الإثارة والتشويق والخوف من المجتمع، راضيةً عن ذلك، وكانت تُحس باليأس عندما تفكر كيف يمكِن لها أن تعطي لتسوتشيا إحساسًا بالخوف والرعب مثلما تشعر هي، ولكن في الواقع كان ذلك شيئًا لا أهمية له إطلاقًا؛ فلقد كانت ستسكو تعشق ذلك الخوف، وعندما عرف تسوتشيا ذلك بنفسه لم يكن عليه إلا أن يجعل هوايته مثلها.

غربَت الشمس بعد خروجهما للمدينة على الفور. أرغمت ستسكو تسوتشيا على السير معها في طرقات مظلمة يقلُّ بها المارة، ومن أجل ألا يفهم تسوتشيا ذلك خطأً، أخذَت تشرح له إلى أي مدًى يجب عليها الخوف من الناس؛ وبرغم ذلك كانت هي البادئة بلفِّ ذراعها حول ذراعه.

وكلما مرَّت أمامها سيارة خاصة تشتبه فيها، أو كلما خرج من أحد المحلات فردان أو ثلاثة أفراد، يتضاحكون معًا، تنتفض ستسكو وتسرع بإبعاد ذراعها عن ذراع تسوتشيا، وعندما جلسا في ركنٍ داخل أحد المطاعم بعيدًا عن أعين الناس، ذاقَت إحساس التعب وكأنها تخطَّت بالفعل العديد والعديد من الصعاب.

نظرَت ستسكو إلى وجه تسوتشيا الذي يضحك أمامها بلا سبب. كان يضحك وملامح وجهه كالفتى الصغير الذي ينظر ببرود إلى جُبنها.

رفعَت ستسكو عينيها من على قائمة الطعام قائلة: «أنت قوي فعلًا». ومع قولها هذا، كانت ستسكو قد بدأت في الاعتقاد هذه المرة أن تسوتشيا، الذي ينظر إلى جُبنها بحياد، على العكس لا يُعتمد عليه.

ومع التقدم في تناول الطعام، وبتأثير من الخمر، بدأ تسوتشيا يقول نكاتًا مكشوفة. كانت تلك عادةً له تصاحبه منذ كان صغيرًا هو الذي يبدو من الوهلة الأولى أخرق، ولكن الكلمات الفاحشة عندما تخرج من فمه تفقد فُحشها. لقد كان معتادًا على هذا الحديث بنبرة باردة لا تتناسب مع عمره.

لقد كان بينهما عدد كبير من الأصدقاء المشتركين، وكان تسوتشيا يعلم حكاية عادة جنسية غريبة لزوج ستسكو، التي كانت تعتقد أنه مسيحي متدين وملتزم.

– «ارتداء الملابس كاملة وتناول الطعام يجعل طعمه سيئًا. أنا أفضل الأكل وأنا عارٍ تمامًا.»

– «بمفردك؟»

– «أنت طفلة فعلًا.»

قال تسوتشيا ذلك باستعلاء.

لقد تأثرت ستسكو بشدة فيما بعدُ بهذه الكلمة. كان ذلك المنظر منظرًا عجيبًا لم تكن تتخيله هي حتى ذلك الوقت، ولقد كانت تتذكر ذلك في كل مرة تتناول فيها الطعام وكل مرة تتناول الإفطار مع زوجها، ولقد اعتقدت أن تسوتشيا سمع على الأرجح تلك الحكاية من صديق منفلت وأخذ يرددها على أنها تجربته الشخصية. لم تكن تشعر بالغَيرة، ولم تكن قد جذبتها تلك الحكاية جنسيًّا، ولكن تربية ستسكو المهذبة جعلتها تصرخ بتلقائية صرخة تأثر وإعجاب: يا له من فعل سيئ في منتهى الروعة!

كانت ستسكو هي التي انتبهت للوقت أولًا، ولكن تسوتشيا كان هو الذي نظر إلى الساعة وقال بانتصار: «لقد أصبحَت الساعة التاسعة والنصف بالفعل.»

نظرَت ستسكو إلى تسوتشيا بحسد وغَيرة. لم تكن تستطيع قول كلمة واحدة لأنها هي التي حددت الوقت من البداية، ولكنها كانت تنوي أن تقوم هي بالإبلاغ بقدوم ذلك الوقت؛ فلذا شعرت أنها قد أُخذت على حين غرة فعضَّت على شَفتها.

داخل السيارة التي أوصلها بها تسوتشيا إلى منزلها في العودة، كانت يده قد التفَّت قليلًا حول كتف ستسكو، ولكن جسدها قد تصلَّب. بالقرب من منزلها يوجد طريق مظلم للتنزُّه بمحاذاة نهر. فكرت ستسكو أنه لو قام تسوتشيا بترك سيارته لبرهة، وأوصلها إلى قرب منزلها، لربما سمحت له بشفتيها أو أنها لو رفضت ذلك فربما سيغضب، وكذلك فكرت أن جزاءَ قولها بنفسها موعد العودة أن تسوتشيا تحتَّم عليه تقَبُّله.

لم ينزل تسوتشيا من السيارة. من داخل السيارة مدَّ يده للسلام بلا مشاعر. عقدَت ستسكو العزم على عدم توديع سيارته بنظرها، ونفَّذت ذلك.

كان عليها بعد العودة إلى المنزل انتظار عودة زوجها البعيدة لساعات. ظلت ستسكو جالسة تفكر في كلمات تسوتشيا عن تناول الطعام عرايا تمامًا. هل توجد هناك مائدة للطعام؟ أم توضع الأطباق فوق البطن العاري؟ لا بدَّ وأن الأطباق عندها ستكون باردة بالنسبة لجلد الجسم. أحسَّت فجأة أن يد تسوتشيا ذات الشعر الكثيف امتدت وقبضَت على ما في أطباق ستسكو بقبضة قوية وكأنها قبضة نسر. ما هو يا تُرى طعم الفاكهة التي يتناولانها هما الاثنان كل منهما يقطم من ناحية؟ ...

ظلت ستسكو لا تفكر إلا في ذلك الأمر، وعندما كانت تمتلئ تمامًا من ذلك المشهد الشهواني التصوري الخالص، يختفي تمامًا أيُّ أثر لمشاعر حب أو حتى مشاعر حقد تجاه تسوتشيا. لقد كانت فكرة أنها تشتاق لحب إنسان هي كذبة. هي فقط كانت تريد شيئًا ما صغيرًا، مثل وهمٍ جديد.

أخيرًا عاد زوجها إلى البيت. تنبعث من أنفاسه رائحة الخمر. تراه كالمعتاد وقد انخفضَت جفونه للنصف بالفعل وهو شبه نعسان، وعندها تفكر لماذا انتظرت عودته إلى هذا الحد ولا تجد إجابة. فلا يوجد إلا جسد إنسان شبه نائم بلا أي فائدة قد احمرَّ بفعل الخمر.

وفي ركنٍ من أركان غرفة النوم يرقد طفلهما كيكو في سريره الصغير. في تلك الليلة لم تحاول ستسكو أن تُقبِّل كيكو. لأن لقاءها مع تسوتشيا قد فقدَ عنصر المصادفة، وقُبلة الطفل قد أصبحت فجأة ذنبًا عظيمًا.

الفصل الرابع

كانت ستسكو تمتلك كبرياءً كافية تجاه وضعها الاجتماعي، ولكنها لا تحمل ميلًا للمبالغة في التفكير حول مشاعرها وأفكارها، وتلك هي طبيعة ستسكو الجميلة، وبسبب مثل تلك اللامبالاة، غالبًا لم تكن تعترف بضرورة تحليل ذلك الفراغ، أو ما تفضل تسميته أحيانًا معاناتها، الذي سقطت فيه حاليًّا. لقد كانت منتبهة في مكان ما من عقلها إلى صفاتها العادية، التي تجعلها تعتقد أن معاناتها تختلف عن باقي البشر، وكانت تلك المعاناة هي التي تبرز إحساسها بضآلة وجودها، وكان ذلك خطيرًا لأنه ينغرز في قلبها تمامًا، وكأنه مثل مكان يقل فيها الأكسجين مما يصيب الإنسان بالاختناق.

كانت ستسكو كأمٍّ أمًّا مستهترة ومتخلية عن واجباتها، ومن حسن الحظ أن طفلها قوي البنيان، وربما يعتمد استهتارها ذلك على عدم وجود قلق عليه من المرض، ولكنه لو كان طفلًا عاطفيًّا وحساسًا لربما قد أصابه المرض من مزاجية مشاعر الأمومة لدى أمه وحبها له؛ فستسكو في بعض الأحيان تقوم بتقبيله كما لو كانت ستأكله، وفي أحيان أخرى تنظر إلى كيكو وكأنها تنظر إلى لا شيء.

إذا كانت امرأة طبيعية عادية فهي تحاول أن تعالج إحساسها بضآلة وجودها ذلك، بجعله وجودًا مفعمًا من خلال حبها لطفلها، ولكن لم تكن ستسكو كذلك، فمن أجل أن تشعر بوجودها بشكل كافٍ كانت هناك ضرورة لما يشبه الأشعار الرومانسية، ومن بين الأشعار تكون أشعار إيروتيكية. الأشعار الأكثر قربًا للشهوانية في داخل الأفكار. ليس مثل الرجال، أن تتحول الفكرة إلى شهوة، لكن على العكس أن تتحول الشهوة إلى فكرة، وتبدأ تلمع كجوهرة جسدية.

بدأت ستسكو تعتقد أنها يجب ألا تلتزم بوعدها في لقاء تسوتشيا المرة التالية؛ فلقد اعتبرت أن حالة عدم الحماس التي عليها تسوتشيا الفتيُّ بسببها هي، ورغم قول ذلك، فلم يكن بسبب قلة سحرها وجاذبيتها ولكن السبب في النهاية هو عدم حماسها هي.

لقد أحسَّت أن لعبة تقليد الغرام تلك قد انتهت، ومن أجل إعلان أنها لن تقابله مرة أخرى، اعتقدت أنها يجب أن تذهب للقائه في تلك المرة. ذهبت متأخرة ثلاثين دقيقة عن الموعد. أصبح تسوتشيا سيئ المزاج بسبب انتظاره تلك المدة، ثم بمجرد لقائه قال موبخًا: لديَّ موعد الليلة ويجب الذهاب إلى مكان الموعد قبل الساعة الثامنة على أقصى تقدير، ولأنه كلما كانت العودة مبكرة كلما كان أفضل، لذا اعتقدتُ أن الموعد في تلك الساعة سيكون مناسبًا لكِ، وبذلك أخذ من ستسكو زمام المبادرة وفقدت فرصة قول كلمة الفراق منها، ثم تنازل قلبها بسهولة على اعتبار أن الحل هو المجيء في الموعد المحدد بدون تأخير في المرة التالية، أما هذه المرة فيكفي أن تستمتع بهذا اللقاء القصير الأخير.

تأملت ستسكو بعنايةٍ وجهَ الرجل الذي على وشك أن يسبب لها التألم والمعاناة. كانت ستسكو تحب ملامح ذلك الوجه المنعقد، وتلك العيون الكئيبة، ولمعة ذلك الشعر المفعم بالحيوية والشباب. بالتأكيد كان مظهر تسوتشيا الخارجي يوافق ذوق ستسكو، وعلى الأرجح فإن تأخُّر نضوجه كان هو سبب عدم اعتقادها ذلك في الماضي البعيد. بصفة خاصة، يوافق تسوتشيا شروط ستسكو في امتلاكه صفات عدم الانتماء الواضح للجنس الآخر، فهو في غاية الطهر والبراءة، وكذلك يبدو عليه أنه لئيم. عندما يغمغم ببراءة بفمه، وفي داخله يبدو أنه يخطط لمؤامرةٍ ما، تكون ستسكو دائمًا على وشك الوقوع في خطر حب تلك المؤامرة. ثم بعد ذلك كانت ستسكو تعشق وجهه الغاضب. وكانت تعشق طريقة حديثه اللامبالية، التي تتحول فجأةً إلى طريقة راقية، ثم فجأة تتحول أيضًا إلى طريقة وقحة.

لو كان ذلك حبًّا، فلقد اكتملت بذلك فقط كل شروطه، ويمكن القول إن ما ينقصه هو الغَيرة فقط. إذا كان هذا هو آخر لقاء غرامي بينهما، فكان يمكن لها أن تستمتع بلا توتر بهذه الشروط التي اكتملت، ولكن بدأت ستسكو تتقيد بقول تسوتشيا إن عنده موعدًا آخر في الساعة الثامنة، وبدأت تفكر مرة أخرى فيما يقلقها بشكل متقطع وسريع.

هل يوجد لديه حقًّا اجتماع في الساعة الثامنة مساءً؟ لم تجعل ذلك السؤال يسير على لسانها، ولكن ستسكو طوال لقائها مع تسوتشيا كان يتردد ذلك السؤال في قلبها مرارًا وتكرارًا. لو كان ذلك مجرد انتقام من ستسكو قاله بشكل عفوي مفاجئ عند غضبه بسبب تأخرها عن موعد اللقاء، ثم إذا قال إنه قد أعرض عن الذهاب إلى ذلك الاجتماع الليلة، وقدَّم تعديلًا لذلك بعد أن خفَّت حدة غضبه تجاها، فلم تكن ستسكو فقط على استعداد أن تغفر له تلك الكذبة، ولكن كذلك فكرت أن توافق على موعد غرامي تالٍ معه. ولكن ماذا لو كان ذلك الاجتماع حقيقيًّا؟

اقترب الوقت سريعًا من الساعة الثامنة، الحد الأقصى. قالت ستسكو بعد أن تأكدت تمامًا أنها لفَّت قولها بمهارة فلا يبدو عليه الغيرة: «بالطبع أفهم أنك منشغل كثيرًا، ولكن لو لديك موعد في الساعة الثامنة، فهذا معناه على كل الأحوال، أننا لم نكن نستطيع البقاء معًا اليوم إلا لما قبل الساعة الثامنة فقط، وكان هناك وقت متاح لك أن تذكر لي ذلك من قبل، وليس أن تقوله لي غاضبًا بسبب تأخري عن الموعد.»

كانت تعتقد أنها تهاجم بشكل خاص لؤم تسوتشيا الذي يستغل بمهارة حتى حالات غضبه، ولكن تلك الكلمات العاتبة ضرَّت موقف ستسكو أكثر وأكثر، فقد قال تسوتشيا بحنان: «أجل .. فلم تكن لديَّ القدرة على قوله إلا في حالة الغضب.»

– «ولكن أنت ماهر في إيجاد مثل تلك الأوقات فجأة.»

صمت تسوتشيا لفترة، ثم همس مغمغمًا أن اجتماع اليوم هو اجتماع جاد وهام للغاية بالنسبة لعمله. سمعت ستسكو ذلك بشك ثم قالت: «ماذا؟ أنا لم أُبدِ أي شك مطلقًا بشأن ذلك الاجتماع. هل تعتقد أنني أرتاب فيما تقوله أنت؟»

بعد أن قالت ستسكو ذلك بكل حسم وتأكيد، وعندما رافقت تسوتشيا حتى باب المطعم في حي تسوكيجي مكان الاجتماع، كان عليها أن تقتل كل شكوكها وفضولها حتى توقف تسوتشيا الذي كان يريد أن يدعو عاملة المطعم لكي تأتي وتقول لها اسم الداعي لهذا الاجتماع لكي تتأكد؛ فقد بذلت ستسكو كل جهدها في توضيح أن هذا الأمر لا يعنيها.

مقابل ذلك كلما بدا تسوتشيا متعجلًا للفراق للحاق بموعد الاجتماع، قامت بجذبه من ذراعه بلا معنى سائرةً به بعيدًا عن المطعم بقدر الإمكان. أخيرًا قالت ستسكو لتسوتشيا الذي بلغ به الضيق مداه: «لقد حسمت أمري. لن أقابلك مرة ثانية وللأبد.»

كان سماع إلحاح تسوتشيا ممتعًا لأذنها. قال لها: لا تقولي ذلك الكلام، ولنتقابل مرة ثانية في الأسبوع القادم في نفس اليوم وفي نفس الساعة وفي نفس المكان، وقال إنه في المرة القادمة لن يضرب مواعيد للقاءات مع أحد غيرها مطلقًا. لم تُجب ستسكو، ثم في النهاية وبعد أن ظلت تجذب الرجل لمدة حوالي ربع ساعة، تركت ذراعه وأوقفت سيارة أجرة فركبتها بعد أن ودعته بتحية وداع ذات مغزى، وظلت تنظر من نافذة السيارة إلى تسوتشيا الذي ظل واقفًا في ذهول في منتصف الطريق. أحبَّت ستسكو إحساس الوحدة الذي كان يلفُّ منظره ذلك. لو كان قد أدار جسده على الفور وأسرع إلى مكان الاجتماع، إلى أي مدًى يا ترى كانت ستشعر بالتعاسة والحزن؟

في يومٍ ما، بعد مرور يومين أو ثلاثة أيام من ذلك.

كان يوم اللقاء المعتاد لحفل الشاي التقليدي الذي يجمع ستسكو مع خمسة أو ستة من صديقاتها، وتلك هي المرة الأولى التي تحضر فيها ستسكو ذلك الحفل بعد أن بدأت في مواعدة تسوتشيا. لقد كان ذلك الحفل في العادة مملًّا، ولكن بفضل المواعدة مع تسوتشيا عدة مرات، أحست ستسكو أنها تختزن في داخلها ما يهزم ذلك الملل وذلك الركود فوجدت نفسها راغبة في حضور الحفل.

ولكن عندما ذهبت، كان الحفل عبارة عن لقاء للشائعات كالمعتاد، وفي إحداها تسرَّب اسم تسوتشيا من فم إحدى الحاضرات. على الفور أصغت ستسكو باهتمام بالغ. تنتشر شائعة عن علاقة تسوتشيا بإحدى ممثلات السينما. كانت تلك الشائعة في الواقع بسيطة للغاية، ولم تكن لدرجة أن توحي بعلاقة عميقة بينهما.

سبق أن تكلمتُ من قبل عن عدم شعور ستسكو بأية غَيرة تجاه زوجها. ونتيجة لذلك، يبدو أن قلبها قد أصبح يحتوي على خلايا عنيدة لا تسمح بتربية شعور الغَيرة فيه؛ حتى مع تنصتها لسماع تلك الشائعة، لم يكن صدر ستسكو يؤلمها بأي حال لدرجة أنها قد أصابتها الدهشة من نفسها لعدم إحساسها بالألم.

لم تكن ستسكو قد سبق لها رؤية تلك الممثلة في الأفلام السينمائية، ولكنها من خلال المجلات، تعلم وجهها وصورتها في لباس البحر، وسيرتها الذاتية، وآراءها في الحياة، ومواصفاتها «للرجل المثالي»، وهي تحكي عن هذا «الرجل المثالي» بكلمات لا يمكن ربطها بأي صورة أو شكل واقعي مما يجعله غارقًا في الغموض والإبهام.

ولكن من خلال العنصرية التي تتميز بها ستسكو، كانت تحتقر مهنة التمثيل. السبب الظاهري لذلك الاحتقار هو عدم وجود ممثلة ولو واحدة فقط تمتلك ذوقًا جيدًا في ملابسها، ولكنها كانت تعتقد أنه ربما يكون بسبب سوء التربية؛ فلقد كانت ستسكو تكره معدل أذواق عامة الشعب.

ولكن ستسكو أدخلت نفسها سريعًا في الحديث حول تلك الشائعة، وبردة فعل سريعة ومفاجئة، لا بل بنبرة صوت قوية ومتيقنة قامت بمدح تلك الممثلة. مدحتها بقولها إن عيبها الوحيد هو سوء ذوقها في الملابس فقط، ولكنها مؤخرًا ارتقى فنها عما كان عليه من قبل، وأيضًا وجهها رغم أنه لا يمكن القول إنه وجه بملامح رفيعة إلا أن تلك الملامح تروقها.

سألتها إحدى السيدات: «هل سبق لكِ رؤية أفلام لها في قاعات السينما؟»

كذبت ستسكو وقالت: «أجل، مرات عديدة.»

حتى بعد أن عادت ستسكو إلى بيتها، ظلت مستمتعة بحالة العدل تلك التي حافظت عليها، ولم تكن تدري لماذا يكون الأمر ممتعًا إلى هذا الحد .. لقد أحست أنها اليوم قد تحررت من كل عنصريتها، ومن حبها كذلك.

الفصل الخامس

كعلامة خطر لشخصٍ يجب عليه تسليمها في وقتٍ ما، أصبحت ستسكو تعي بوضوح أكثر مع مرور الأيام، القوة التي لا تزال محتفظة بالإمساك بها حتى الآن. يقوى تدريجيًّا إحساس الحرية والقدرة الكاملة مع مرور الأيام. وعندها يصبح شعور الرغبة بتلافي اللقاء مع تسوتشيا أو ضرورة عدم مقابلته ثانية، كل ذلك بالنسبة لها لا يعبِّر إلا عن الضعف فقط لا غير. رأت ستسكو في كل تردد لها ضعفًا، وبدا لها ظاهريًّا أنها تعاملت مع ذلك في الواقع بعقلانية، ولكنها عندما اعتقدت أن شعور الرغبة في البعد عن تسوتشيا هو إحساس يشبه لدرجة التطابق شعور الحب، قامت بالقضاء تمامًا على ذلك الضعف بلا ندم.

اللقاء التالي كان ممتعًا، لدرجة أنها كانت سعيدة به، وبهذا الشكل تواعد الاثنان مرارًا وتكرارًا.

وكان تسوتشيا ثابتًا ورصينًا، ولأنه في مظهره الخارجي يبدو رومانسيًّا، وكان يعطي إحساسًا برجل واقع في الحب والغرام، كان بفضل ذلك به شيء من صفات مَن يبدو عليه الهرب من واجب إبداء المشاعر بشكل أو بآخر.

كانت أول قبلة بينهما (على وجه الدقة فالقبلة إياها، التي كانت من تسع سنوات هي الأولى وكانت تلك هي الثانية) في المكان والزمان الذي خططت هي لهما. في نهاية عدد من اللقاءات والمواعدة، عندما جاء تسوتشيا حتى مكان قريب من منزل ستسكو ونزل من السيارة لتوديعها، للأسف كانت ستسكو هي التي بدأت الكلام وعرضت عليه خصوصًا قائلة: «أنت مخمور .. ألا تأتي للتنزه معي قليلًا؟»

وفي الواقع لم يكن تسوتشيا مخمورًا إلى هذا الحد.

قال لها تسوتشيا الذي كان في تلك الفترة قد امتنع عن وصف زوجها بلقب السيد زوجك مكتفيًا بزوجك فقط: «ألا يوجد خوف من الاصطدام بزوجك أثناء عودته من عمله؟»

مُظهرًا بعض القلق، ولكنه كان يبدو عليه الاستمتاع تقريبًا بهذه الخطوة الخطرة. قالت له ستسكو: «لو عبرنا للضفة المقابلة لا خوف إطلاقًا.» ثم بعد ذلك عبرا معًا النهر فوق جسر صغير.

كانت ليلة باردة لذلك فقد سارا معًا وهما عاقدَين ذراعيهما اللتين ترتديان بالطو ثقيلًا، وأخيرًا توقفت ستسكو عن السير معطيةً له الإشارة. بعد فترة من ذلك اقترب تسوتشيا أخيرًا بشفتيه، ولكن تلك الشفاه توقفت على مسافة قريبة جدًّا من شفتَي ستسكو، ثم ابتسم قليلًا بطرف فمه قائلًا: «أنت الملومة.» ستسكو بدلًا من الرد حاولت قرصه ولكن قماش البالطو السميك الذي يرتديه حال دون ذلك، وأثناء ذلك كان الاثنان قد قبَّلا بعضهما. ولقد فوجئت ستسكو رغم منطقية ذلك، أن تسوتشيا قد أصبح أمهر بكثير في التقبيل مقارنة بما كان عليه من تسع سنوات.

وفي تلك الليلة وكما هي العادة كانت ستسكو بمفردها تنتظر عودة زوجها، ولكن تولَّد داخل قلبها شعور بالوحدة لا يمكن تفسيره. لقد كان شبح تسوتشيا موجودًا في خيالها بسبب تلك القبلة غير المتقنة. لقد طال شعورها بعدم الإشباع حتى إلى فقدِ الحنان واللطف لدى الرجال. كان من المفروض على تسوتشيا أن يظهر مهارته تلك في المرة التالية. كان يجب عليه هذه الليلة أن يقبِّلها تلك القبلة البليدة القديمة حتى ولو كذبًا. ولكن حتى نفسيتها الصعبة تلك، عندما وصلت إلى التفكير في غريزة التباهي التي تعرفها بنحو ما عند الرجال، تحول شعورها قليلًا إلى التسامح والغفران.

ما الذي تفعله ستسكو يا تُرى؟ هل هذا هو الحب؟ لقد كان من الضروري بالنسبة لستسكو عدم إشباع روحها الشهوانية، وكانت دائمًا ما تعتمد في ذلك على فضيلتها المتسامحة.

لقاءاتها مع تسوتشيا أصبحت كثيرة، ولكن تسوتشيا كان محافظًا على أدبه الجم. كان يبدو كأنه يَعتبر قبلة الوداع أثناء سيرهما على ضفة النهر المظلم عند توديع ستسكو، لا تزيد عن كونها طقسًا مؤدبًا يحتوي على القليل من الحلوى.

أصبحت القاعدة الشرعية التي وضعتها لنفسها بعدم وجوب التسليم له، منعدمة الجذور، والسبب أن تلك القاعدة ستفقد جذورها في التو والحال في حالة إذا ما طلب تسوتشيا ذلك.

ومقارنة بما تحكيه صديقاتها المتزوجات عن الرجال الذئاب، يُعتبر تسوتشيا نوعًا غريبًا عنهم بشكل كامل، فهو حتى لو كان مخمورًا، حتى أثناء همسه في إذنها وقت

الرقص معًا، لم يسبق له قط أن ألمح إلى أكثر من ذلك ولو لمرة واحدة. ولكن إذا اعتبرنا ذلك أهلًا للثناء ودليلًا على حسن أدبه وسلوكه، ستكون مواضيع حديث تسوتشيا في الأيام العادية خليعة لحدٍّ بعيد، أو ربما يكون تسوتشيا يَعتبر ستسكو بحق لا تزيد عن مجرد «صديق الروح». تخيُّلات ستسكو تلك كانت بحق تخيُّلات قاسية، حيث إنها لا تجد في قلبها ما يؤيد ذلك.

وهنا ومن أجل أن توضح ستسكو إرادتها في عدم السماح له، كانت توجد ضرورة في إغواء تسوتشيا لكي يطلب ذلك بنفسه. وفي نهاية الأمر، إذا رفضت ستسكو، سيكون ذلك الرفض هو انتقامها منه لعدم إبداء رغبته فيها على مدى الأيام الماضية.

كانت ستسكو غير ماهرة في الإغراء. لم تكن لديها ثقة بنفسها في قدرتها على ضبط شبكة الإغراء بحيث تظل في حدود الإغراء ولا تتعداه. كانت تخشى من جرح كرامتها لو قامت بحركات مُبالغ فيها من أجل أن تجعل تسوتشيا يطلب ذلك بلسانه، ولذا كانت أفكارها تتوقف في حدود الأفكار فقط.

يحدث تدريجيًّا في العلاقة بين الجنسين، ضيق في التنفس بسبب الرغبة في الوصول لنهاية مستقرة. ولكن تنفس تسوتشيا بحرية وبتوسع وهو يبدو وكأنه لا يحس بأي معاناة أو ضيق في التنفس، يجعل ستسكو تحقد عليه. كان يبدو وكأنه يستنشق هواءً مختلفًا عن الهواء الذي تستنشقه هي. كان الهواء الذي تستنشقه هي قد صار بالفعل لا يوجد به ما يكفي من أكسجين.

أثناء لقائها مع تسوتشيا وعندما يحدث شيء يجعل ضربات قلبها تدق بعنف فجأة، تنظر ستسكو تلقائيًّا إلى تسوتشيا الموجود بجوارها. فيظهر لها من الجنب وجهًا هادئًا ساكنًا، وعندها تعتقد ستسكو أن ضربات القلب تلك لا تزيد عن مجرد مرض في داخلها وليس له أية علاقة بالبيئة المحيطة بها.

«لقد صرتُ في الفترة الأخيرة أُرهق كثيرًا بسبب اللقاء معك.»

قالت ستسكو ذلك على طريقة المريض الذي يشتكي من مرضٍ ما. فقال تسوتشيا: «أكيد ذلك بسبب فصل الربيع.»

كان ذلك الربيع مضطربًا فوضويًّا، والثلوج في ذلك العام لم تهطل للمرة الأولى إلا بعد دخول شهر مارس، ورغم ذلك أثناء شهر فبراير كانت هناك أيام مشمسة تجعلك تشعر أن الوقت هو الاعتدال الربيعي، ولعدم استمرار تلك الأيام الدافئة، تعود للهبوب فجأة رياح شمالية شديدة البرودة، وفي نهاية ذلك وبعد هطول الثلوج، تتبادل الأيام بين يوم شديد البرودة مثل أيام بدايات الربيع، وأيام دافئة تشبه بدايات الصيف.

كان جسد ستسكو كذلك يعكس تلك التغيرات في الطقس وكان به شيء ما غير طبيعي، ولكنها لم تكن تعلم ما كُنه ذلك الشيء، ولكن لأن الطمث الذي يتأخر عادة، لم يأتِها في شهر فبراير، وحتى بعد مرور نصف شهر مارس لم يُبدِ أي بوادر للمجيء، فقد عرفت ستسكو السبب. كان توحُم ستسكو خفيفًا دائمًا. وفي صباح أحد الأيام، أحسَّت بتلك الرغبة الخفيفة في القيء، فذهبت على الفور إلى الطبيب وتأكدت من أنها حامل.

في طريق العودة أحسَّت ستسكو بدوار مفاجئ؛ كانت وكأنها قد حملت جنينًا فقط من قبلة تسوتشيا.

في تلك الليلة التي بقيت فيها آثار قبلة بدايات الصيف، تلاقت مع زوجها في الفراش بعد غياب طويل بسبب حالة من الشعور بالوحدة لا تعرف لها سببًا. فعلت ستسكو ذلك رغم علمها أن ذلك اليوم جاء بالصدفة في فترة خطرة.

كان زوجها مخمورًا كما هي عادته، ولكنه تجاوب مع حركات ستسكو النادرة الحدوث، وبصعوبة أنهى دوره وغرق بعدها في نوم عميق.

أما عن ستسكو فكانت أثناء ذلك تحلم بشفاه تسوتشيا المعبرة بشاعرية. ورغم أنها ظلت طوال فترة انتظارها لزوجها تهاجم انعدام الحساسية لدى تسوتشيا؛ إلا أن ستسكو عرفت في وقت آخر ما كان يشير إليه ذلك الحرمان. وكانت على وشك النداء باسم تسوتشيا، وظلت طوال الليل بدون أن تغمض عينيها ولو للحظة من خوفها أن تنادي على اسمه أثناء نومها. ظلت بلا نوم حتى شروق شمس الشتاء المتأخرة وتلوينها للنافذة بشعاع أبيض.

لمست تلك السماء المتشحة باللون الأبيض قلب ستسكو. إنه لشيء مرعب أن تكون هذه الدرجة من الخداع ممكنة تحت هذا الشكل من الوفاء. أحست ستسكو بالرعب أمام زوجها الغارق في النوم، ولكن تلك السماء البيضاء لهذا الفجر الشتوي تعطي إحساسًا بالعقر، لذا آمنت ستسكو أن تلك الليلة المدنسة لن تسفر عن أي ثمار.

في طريق العودة من عند طبيب النساء والولادة، بدأ ضمير ستسكو يؤلمها لأول مرة. لقد كنت أحمل أوهامًا وخيالات غبية. إن السبب هو الإحساس الخادع بأن ذلك الطفل هو ابن تسوتشيا. ظلت تحاول إجبار نفسها على الاعتقاد بذلك. لا، لا، هي ليست خائفة مطلقًا من الأوهام والخيالات الغبية.

بل إن ستسكو أخرجت من ذلك معنًى لعقابٍ ما، أو لشفرةٍ ما. لأنه كان حملًا غير متوقع بالمرة، فلم تكن تعتقد أنه كان بلا أي معنًى. لم يكن أمامها إلا الاعتقاد أن شيئًا ما يحاول معاقبتها.

ظلت ستسكو تمعن في التفكير مرارًا وتكرارًا في الشيء الذي يطلبه منها هذا الإيحاء. يمكن فهم ذلك على أكثر من معنى. المعنى الذي يمكن التفكير فيه سريعًا هو كما يلي:

الحمل يعني إجهاض لقاءاتها مع تسوتشيا. يعني إجهاض ذلك الحب الذي لا يبدو له تقدم، ويبدو وكأنه تعذيب بطيء وممل؛ بل وربما يكون ذلك عبارة عن نعمة عظيمة؛ بل ويمكن الاعتقاد أن أحدًا ما جاء فجأة من أجل أن يستحث إرادتها من أجل تفادي وقوعها في التعاسة المتوقعة. يكبر بطنها تدريجيًّا، ويصبح لقاؤها مع تسوتشيا مثيرًا للسخرية، فيحدث الابتعاد الطويل بينهما، ثم ينتهي الحب، فيولد طفل زوجها كابن لزوجها خالصًا حقًّا.

بعد أن وصل تفكيرها لهذه النقطة، عرفت ستسكو ما هي النتيجة المتولدة عن استجابتها بطاعة وتسليم نفسها لما تعتقد هي أنه قدرها. بعد التنازل عن الحب بهذه الطريقة وحب ستسكو للطفل الذي سيولد، بعد مرور فترة ستستدعي الذاكرة قبلة تسوتشيا في تلك الليلة، حتى لو لم يكن واضحًا تمامًا أن ذلك الطفل ليس طفل تسوتشيا، ولكنه سيكون كأنه وُلد فقط كتذكار لذلك الحب الضائع، ولن تستطيع ستسكو العيش طوال عمرها بدون أن تتذكر تسوتشيا.

وبهذا ربما كان أفضل لو أنه ابن تسوتشيا حقًّا؛ فهو بهذا سيولد له حب من نوع آخر. فلا توجد خيانة أكبر من ولادة طفل هو في الحقيقة ابن زوجها ولكنه لا يرتبط في ذاكرتها إلا بتسوتشيا. لا يوجد عدم وفاء أكبر من ذلك.

من أجل ستسكو يجب أن أقول ذلك. تلك الأفكار كانت في الواقع جادة للغاية. ولم يسبق لها أن غاصت من قبل بالمرساة في أعماق أعماقها بهذه الدرجة. ورغم ذلك، كان ذلك الصدق وذلك الإخلاص يحتويان في مكان ما منهما على حالة من اللهو. كان ذلك عبارة عن اتجاه القلب الذي مَلَّ من اللهو في الماء الضحل إلى بدء اللهو في الأعماق، وعندما وصلت أفكار ستسكو إلى الاعتقاد أن ولادتها لهذا الطفل هي الخيانة الحقيقية لزوجها، في قاع مشاعر الإخلاص لزوجها التي تم تجميلها لهذه الدرجة، ظهرَ وجهٌ ما لفرحة الدفاع عن الذات.

وقد قررت ستسكو في نفسها قرارًا في غاية الجد وهو ما يلي: «يجب أن أكتم ذلك الأمر، عن زوجي وعن تسوتشيا للأبد.»

الأمر العجيب للغاية هو بدء ستسكو في الاعتقاد أن صمتها تجاه حملها أمام تسوتشيا يعني لها أنها تدفع تضحية كبيرة للغاية من أجله. في بداية تفكيرها هذا كان يكمن في داخل الشعور بالذنب متعة الصبر والتحمل من أجل تسوتشيا.

حسنًا، من خلال الخلاصة التي سبق ذكرها، كانت ستسكو تخاف من خيانتها لزوجها، وعندما توصَّلت إلى فكرة إسقاط الجنين من أجل زوجها، ألا يكون من الطبيعي هذه المرة أن تفكر في أن هذه القرار هو تضحية منها تدفعها من أجل زوجها؟ ولكن ستسكو بشكل غريب حمَت زوجها، ثم كانت ستسكو تفضل التفكير أن ذلك هو تضحية تدفعها هي أكثر وأكثر من أجل تسوتشيا.

في نفس الوقت مع تفكيرها هذا، تقِل متعتها بتحمُّل التضحية، ومع مرور الأيام يصبح ذلك عبء ثقيلًا على قلبها، ولم ترَ عيناها إلا جانب الآلام والمعاناة فقط البادي من الموضوع. المرأة التي كانت حتى ذلك الوقت لا يليق عليها إلا أفخم العطور، أصبحت أسيرة لمعاناة قاسية.

سبق أن قامت ستسكو في الماضي بالإجهاض لمرة واحدة. في ذلك الوقت كان جسدها ضعيفًا وكانت كثيرة المرض، ولذلك كان زوجها على العكس مشجعًا لها على الإجهاض ففعلت ذلك. حينها بكت قليلًا، ولكن كان الشعور بالحزن مختلطًا بحلاوة، ولكن الأمر هذه المرة مختلف، فهذه المرة يجب عليها فعل كل شيء بنفسها والوصول بالأمر إلى نهايته بمفردها. استيقظت ستسكو في عمق الليل بسبب رؤيتها لحلم يبكي فيه الطفل الذي لم يتكون شكله بعدُ، وربما من خوفه من رميه في الظلمات على أي حال ويرتفع صوت بكائه داخل الرحم. وبقي صوت البكاء ذلك عالقًا في أذنيها، وظلت تعتقد أن صوت البكاء الخفيف المشروخ الجاف مستمر حول بطنها، ونزح عرق بارد في ظهر ستسكو، وأصاخت السمع. كيكو يغرق في النوم في أحد أركان الغرفة.

سمعت صوت صفارة قطار بضائع يأتي من بعيد. هل هذا الصوت أتاها في الحلم على أنه نحيب طفل؟ أم أن نحيب الحلم قد أصبح بعيدًا وتسمعه مختلطًا مع صفارة القطار. بجوارها زوجها الذي لا يستيقظ حتى لو وقع زلزال كبير نوعًا ما، يرقد مُصدِرًا غطيطًا هانئًا.

أحست ستسكو فجأة بجوع شديد، فقامت من الفراش وهبطت إلى المطبخ.

لا يجب أن تُسقط الجنين قبل لقائها القادم مع تسوتشيا. لا تريد مقابلته بجسدها الواهن الضعيف بعد عملية الإجهاض. فكرت ستسكو أن تقابله هذه المرة وفي اليوم التالي تذهب مباشرة للطبيب.

ولكن عدمية الدراما الصامتة، التي من المفروض أن تنتهي بهذا الشكل دون أن يعلم بها أحد، ربَّت تدريجيًّا في ستسكو شعورَ الرجاء بحصولها على تعويضٍ ما. أصبح ذلك

الشعور يكبر تدريجيًّا مع الوقت ومع مرور الأيام. أحست أن لديها المؤهل للحصول على أي سعادة مهما كانت، لأنها تتألم وتعاني إلى تلك الدرجة. لم تكن تدري بماذا ترغب، ولكنها كانت تعتقد أن أي رغبة لها لن تصبح ذنبًا بسبب أنها بذلت التضحية إلى هذه الدرجة.

رغم رغبتها في لقاء تسوتشيا ولو اليوم، ولكن كلما اتصلت به هاتفيًّا لا تجده. كان يقول دائمًا إنه منشغل للغاية في عمله، ولم يكن ذلك كذبًا، وأخيرًا قررت ستسكو أن تختبر قوة تحمُّلها بمفردها في انتظار موعد اللقاء التالي بينهما بعد ثلاثة أيام، لأنه من نوع الرجال الذين يحافظون على تعهداتهم في اللقاء، وأثناء فعلها ذلك كان سقف توقعاتها ورغباتها يرتفع مع مرور الأيام.

صارت حياة ستسكو اليومية وقلبها يدوران حول تسوتشيا بكل وضوح.

على الأرجح لم يحدث في نصف عمرها أن انتظرت انتظارًا يشبه انتظارها ذلك اللقاء!

كانت في رعب عندما تفكر أنها يجب عليها النظر أولًا إلى وجه تسوتشيا في ملابسه العادية، وجهه ذلك الذي لا يتغير عليه، وبهذا الشكل انتبهت ستسكو أن موقفها في هذه الحياة ومعيشتها كلها أصبحت تتوقف على مشاعر شخص آخر.

كان ذلك في يوم مشمس من أيام أوائل شهر أبريل. كانت درجة الحرارة قد ارتفعت فجأة وأصبح الجو في دفء شهر مايو، لدرجة أن بعض الناس كانوا يسيرون في الطرقات وقد خلعوا معاطفهم، وسبَّب الرداء الغربي ذو القطعتين الذي ارتدته ستسكو إحساسًا بالحر، وخوفًا من العرق وضعت أسفل أذنيها عطرًا.

لم يكن عدد الزبائن كبيرًا، في المحل مكان اللقاء، وكانت الموسيقى تبدو مزعجة. عندما ألقت نظرة سريعة على المكان وجدت أن تسوتشيا لم يأتِ بعد، ولكن ستسكو اكتشفت تسوتشيا على الفور. كان يجلس على مائدة واحدة ضمن ثلاث زبائن آخرين، وكان مندمجًا معهم بكل خواطره في حديثٍ ما. على ما يبدو هم معارف له. كانت ستسكو تعرف المرأة التي يتحدث إليها تسوتشيا. كانت هي الممثلة التي تم ذكرها في الشائعات حوله.

على الفور انتبه تسوتشيا إلى ستسكو، فوقف من مكانه وتوجه لاستقبالها قائلًا: «أنا كذلك وصلت لتَوي.»

وعندما جلسا متقابلَين في أحد الأركان البعيدة عن مقاعد الممثلة، جلست ستسكو وكأنها تنهار على المقعد.

بعد فترة وصل الشاي، وقال تسوتشيا: «هل حدث مكروه؟»

كان رجلًا ذا حس مرهف. ارتبكت ستسكو وأجابت بأنه لم يحدث شيء.

ثم حاولت الكلام قائلة: «أنا في الواقع ...»

كانت كلما بدأت الكلام بهذا الشكل تقوم بإعلان شيء ما جديد. انتبه تسوتشيا لذلك، وأظهر لها إصغاءه لها بكل اهتمام.

كانت الكلمات داخلها قد استوت تمامًا وستتدفق في سلاسة، ولكنها كانت كلمات إذا لم تصل لسمع مُحدثها في المرة الأولى فهي غير قادرة على إعادة قولها ثانية، ولذا كانت تخشى من الموسيقى المزعجة. ماذا تفعل لو أن كلماتها تلك قد حجزتها الموسيقى عن الوصول إلى أذن تسوتشيا وطلب منها تكرارها؟ ولكنها كلمات لا يجب عليها البدء في قولها من نفسها، وكانت تعتقد أن الكلمات على وشك التجمد أثناء انتظار الوقت المناسب لقولها. ولذا قالت ستسكو وهي تقوم بالضغط والتركيز على كلامها كلمة كلمة بمنتهى الوضوح: «ألا تذهب معي في رحلة؟»

كان رد تسوتشيا فوريًّا بلا أي إبطاء: «بكل سرور!»

ثم أظهر ابتسامته التي اشتاقت لها، وشجعتها على الابتسام هي أيضًا. أثناء لقائهما في ذلك اليوم، لم تذكر ستسكو أمر تلك المثلة في الحديث مطلقًا؛ بل ظل الاثنان يتكلمان فقط حول رحلتهما معًا.

الفصل السادس

تحررت ستسكو من الخيالات وأيضًا من الإحساس بالذنب، والآن حتى ذلك الطلب الذي طلبته بنفسها لا يوجد شعور بالندم عليه.

وضع الاثنان في الاعتبار عمل تسوتشيا وتعاهدا على السفر في رحلة معًا في شهر مايو، وكذلك بالنسبة لستسكو كان ضروريًّا لها ذلك الوقت للاستعداد، فقد كان يجب عليها التفكير في حجج عديدة ورسم خطط ووضع سيناريو.

كان تسوتشيا حنونًا بدرجة لا يمكن التعبير عنها، ولقد سكرت ستسكو في ذلك الحنان حتى اليوم التالي، وفي غمرة ذلك السُّكر ذهبت في الصباح الباكر إلى الطبيب، وفي غمرة ذات السكر أنهَت العملية. هل علم الطبيب أنها كانت في درجة لا تستدعي حتى حقنها بالبنج؟

ولقد تولدَت داخل ستسكو، ستسكو الحقيقيةُ واستيقظَت؛ فلقد اكتشفَت الرجل الذي يجب أن تحبه، والأمر العجيب أن منذ الليلة التي اتفقا فيها على السفر في رحلة معًا وتسوتشيا بدأ يتصرف معها بسلوك الحبيب، وكأنه منذ ذلك اليوم قد وجد الدور الذي يجب عليه أن يقوم به.

كانت يده وكلماته الآن مرتبطة الآن بشكلٍ ما بالغنج. كان يلمح بسرعة شديدة ما إذا كانت ستسكو مرهقة قليلًا، أو متعكرة المزاج قليلًا، ولقد كان من العجيب بالنسبة لستسكو التفكير أين وكيف كان يُخفي هذا الفتى حتى الآن هذه الدرجة من سرعة البديهة وقوة الملاحظة بشكل كامل.

صار الاثنان على الفور على علاقة قوية بحيث يتواصل قلباهما من مجرد النظر. لم تشعر ستسكو من قبلُ بشهوانية أنوار المدينة كل ليلة في شهر أبريل كما تشعر بها هذا العام.

في إحدى الليالي، تواعد الاثنان وشاهدا فيلمًا سينمائيًّا انتهى قبل الساعة التاسعة، وعندما خرجا من دار العرض، حدث انقطاع كبير للتيار الكهربائي نادرًا ما يحدث. انطفأت كل أنواع الإضاءة في المدينة، وأنوار النيون انطفئت وهي ترتعش. بعد مرور ثوانٍ قليلة أضيئت مرة أخرى، وعادت أنوار النيون ترتعش مرة أخرى لتضيء، وأضيئت نوافذ مبنى إحدى الجرائد في وقت واحد. ولكنها بعد أن أضيئت عادت لتنطفئ مرة ثانية، وبقيت فقط إضاءة المباني التي تمتلك مولدات كهربائية خاصة بها.

المدينة التي كانت حتى تلك اللحظة مليئة بالأضواء، كان منظرها وهي تختفي فجأة في الظلام، مؤلمًا وقاسيًا. حتى إشارة المرور في تقاطع الطريق انطفأت، وبدأ عساكر المرور في استخدام فوانيس ومصابيح يدوية لتنظيم المرور، وفي طريق سير السيارات، كانت إضاءات السيارات الأمامية فقط هي التي تُشع وتتلألأ وتمرُّ السيارات مخترقة الظلام اعتمادًا على هذا الضوء غير المستقر فقط.

كان هذا الإحساس بالفوضى يناسب كثيرًا ما يُحسَّان به في قلبيهما، وكأن المدينة قد أحدثت تغيرات في نفسها من أجلهما، من أجل أن تتناسب معهما بجعلِهما يشعران بحظ سعيد بشكلٍ ما لم يكن يُتوقع. كانت أمنية ستسكو في الأيام الأخيرة هي حدوث شيءٍ ما، وقوع كارثةٍ ما غير متوقعة. في الشوارع الضيقة هنا وهناك، خرج الناس من المحلات جماعات وأفرادًا مُحدِثين جلبة. هذا الإحساس المقلق زاد من قوة دفء تلك الليلة المبكر عن موعده بأكثر من شهر حسب التقويم.

مرَّ الاثنان من أمام فرع التوزيع لإحدى الجرائد. داخل فرع التوزيع سيطرَ الظلام كاملًا وكأنه كهف، وتتوقف عدة شاحنات سوداء في الداخل. ويوجد ما ينمُّ على أن عددًا كبيرًا من الرجال يعملون في الداخل وسط الظلام الدامس. صرخ أحد هؤلاء الرجال بصوتٍ عال: «لقد وُضعت مفرقعات في محطة توليد كهرباء إيناواشيرو. حدث انفجار. لقد انفجرت محطة توليد الكهرباء!»

وعلى الفور أضاء نور مشع تسلط على العين، وكانت شاحنة توزيع الطبعة الأولى من النسخة المسائية للجريدة قد أنارت الأنوار الأمامية لها وبدأت الحركة في عجالة ومبالغة.

بعد أن تخطيا ذلك المكان نظر تسوتشيا وستسكو بعضهما لبعض. هل تلك الصرخة التي دوَّت في الظلام حقيقة؟ ولو كانت حقيقة، هل هي تعبر عن حدوث ثورة أو اضطرابات وعنف قريب من نوع الثورات؟

«أسرِع بشرب خمر الساكي المعتَّق في الظلام وقبل حلول الضوء!»

هذه المرة كانت الصرخة القادمة من فرع التوزيع بهذا الحال، وبعدها حدث هرج ومرج عبارة عن ضحكات لرجال عديدين بصوت قوي وكبير.

تأثرت مشاعر ستسكو، والقلق الذي لا يمكن التعبير عنها أصبح مرتبطًا بالجسد في التو والحال. ولأن في وسط ظلام المدينة هذا لا حاجة لأخذ عيون الناس في الاعتبار، ولكن كان قلق من نوع آخر هو الذي جعل ذلك القلق يذهب، وأصبحت مشاعر ستسكو واضحة ومكشوفة. وأحست ستسكو أنها في لقاءاتها المتتابعة مع تسوتشيا لم يسبق لها من قبل أن سارت في المدينة بمثل هذه المشاعر الممتلئة بالرضا.

وصلت حرارة ذراع تسوتشيا إلى ذراع ستسكو المنعقدة بها، واتضح تمامًا أن ذراع الرجل التي كانت تظهر مرات عديدة على فترات متقطعة في ذاكرتها هي تلك الذراع. طلبت ستسكو من تسوتشيا لأول مرة أن يقبِّلها في وسط طرقات المدينة. توقف تسوتشيا وقام بتقبيلها خلف ظلال لافتة دعاية مجاورة.

لا يمكن إعفاء ستسكو من سباب قبيح لتشبثها بنظرة الاستعلاء الاجتماعي حتى في ذلك الوقت، ولكن لم يكن ذلك بلا علاقة بالمشاعر التي سيطرت عليها وقتها والأحاسيس التي حثتها عليه. في وسط الجلبة والفوضى التي حدثت في المدينة بسبب انقطاع الكهرباء الكبير، ومع رؤية حلم الثورة والاضطرابات، عنصرية ستسكو المتخلفة عن العصر حقًّا، جعلتها ترسم بوضوح أفكارًا أن موقفها هو موقف الضحية لتلك الأحداث. كانت تلك الأوهام والخيالات هامة في تشجيع شهوانية ستسكو التي لا يوجد ما تعتمد عليه.

واصلت ستسكو أوهامها في التساؤل من هو يا تُرى الفتى الواقف أمامي، من هو عشيقي هذا؟ لم يكن يمثل لها عدوًّا، وكذلك وفي نفس الوقت لم يكن مطلقًا حاميها الذي يعتمد عليه. إنه الفتى الذي يوافق ذوق وهوى ستسكو في الرجال، رجل من نفس بيئتها .. بمعنى أنه أيضًا أحد الضحايا.

ارتعد قلبها بالأفكار «هذا الشخص أيضًا ضحية» وبهذا الشكل اكتملت شروط هوايتها القصصية.

ألَا يحدث مرة ويصل عقل ذلك الفتى الذي يدعى تسوتشيا إلى فكرةٍ ما؟ كانت ستسكو هذه المرة أيضًا هي التي طرأت عليها الفكرة. فكرت أنها تريد الذهاب لرؤية الحديقة الواسعة القريبة من منزلها في ليلة انقطاع الكهرباء الكبير هذه.

أوقف الاثنان سيارة أجرة، ثم نزلا أمام مدخل تلك الحديقة بعد حوالي عشر دقائق من السير بالسيارة الأجرة. لم تكن تلك الليلة هي التي تظهر فيها هذه الغابة عملاقة. تنتشر السحب في السماء فلا يمكن رؤية القمر أو النجوم.

سارا فوق النجيل تحت أشجار أَرز الهيمالايا. كانت الأضواء الأمامية للسيارات ترسم بلا انقطاع ظلالًا قلقة، وتنتقل ظلال الأشجار من مكان لآخر. تطلق أضواء السيارات الأمامية التي تأتي من على بعد مائتي متر، أشعتها العنيفة على العيون، ولكن على الفور ومع انحناء السيارة مع الطريق تضعف تلك الأشعة لتذهب فجأة بعيدًا.

ومع تردد صافرة التنبيه لسيارة في أفق الغابة بعيدًا، وفجأة بوضوح تام، تسمع صوت قبقاب ياباني أو صوت أحذية غربية تقترب. نهض الاثنان على عجل. ثم بعدها عرفا أن ذلك على غير المتوقع بعيد جدًّا عنهما. وأثناء احتضانهما فوق الأعشاب، لمس الاثنان لأول مرة جسد كل منهما الآخر بأناملهما. وعرفت ستسكو جيدًا أن جسد تسوتشيا ملتهب بالحرارة. ولكن لأن ستسكو طيبة القلب، فقد ظلت تلمس جسد تسوتشيا الصامت مع علامة الحرارة المظلمة في رأفة يمكن تقريبًا القول عنها إنها مشاعر شفقة. لقد نسيت تمامًا حتى ذلك الوقت أن ذلك الرجل به مقومات الطيش والتهور.

بعد فترة قصيرة، أُنيرت أعمدة الإنارة العديدة الموجودة في الحديقة في وقت واحد. ومع نفس اللحظة نهض الاثنان واقفَين، وسارا صامتَين لفترة طويلة. وفجأة أرادت ستسكو أن ترى منبت الشعر في قفا تسوتشيا فتوقفت، وجعلته يسبقها. بعد أن سار تسوتشيا خطوتين أو ثلاث خطوات توقف وسألها عن السبب، ردت ستسكو وهي تضحك قائلة: لا شيء.

هل وقعت الثورة حقًّا؟ لا لم يكن الأمر كذلك. في الصباح التالي وأثناء جلوسها على المائدة مع زوجها لتناول طعام الإفطار، قرأت ستسكو خبرًا في الجريدة أن سبب انقطاع التيار الكهربائي ليلة أمس هو وقوع صاعقة على محطة توليد كهرباء إيناواشيرو.

سألت ستسكو: «هل يا ترى حدثت صواعق ليلة أمس؟»

رد زوجها: «لا لم يحدث.»

الفصل السابع

كانت خطة ستسكو التي أعدتها من أجل السفر في شهر مايو هي كالتالي.

فحتى الآن كان الطبيب قد نصحها بالراحة والاستجمام، وقد سبق لها أن خرجت في رحلة بمفردها ليومين أو ثلاثة أيام. الزوج منشغل في العمل، ولكن إذا كان مكان الرحلة قريب، حدث مرات أن سافر لها ليلًا تبعًا لما تمليه عليه رغبته، ثم يعود إلى طوكيو بقطار مبكر في صباح اليوم التالي. ولكن هذه الرحلة يجب أن تكون لمكان بعيد، وأن تكون رحلة لا تحتاج لتوصية من الطبيب، وفي نفس الوقت يجب أن تكون رحلة لها سبب وجيه للغاية.

القول إن المرأة ليس لديها عاطفة الصداقة هو قول كاذب، فالمرأة تخفي عاطفة الصداقة كما تخفي حبها الشاذ، ونتيجة لذلك تُخفي علاقة الصداقة النسائية بداخلها علاقة المشاركة في الجريمة بالضرورة. كانت ستسكو كذلك تملك صديقة تثق بها من قلبها. إنها يوشيكو. كانت يوشيكو أيضًا متزوجة ولكنها كانت سابقة على ستسكو في امتلاكها لعشيق لحوح للغاية.

كانت يوشيكو بشكل عام امرأة متحررة من كل القيود، وكانت تحتقر اجتماع الشاي المعتاد، وكذلك كانت تكره ما يُسمى بارازات الجمعيات الخيرية بشكل غريزي، ولذلك فقط كانت زياراتها المباشرة لمنزل ستسكو كثيرة، وفي بعض الأحيان يطول بهما الحديث لوقت متأخر من الليل، وتلهوان معًا لما بعد عودة زوج ستسكو من عمله، وكان زوج ستسكو يقول عن يوشيكو إنها امرأة مرحة.

كانت يوشيكو تتحدث مع ستسكو عن حياتها كما هي بصراحة شديدة. لم تكن يوشيكو واقعة في الحب. بل الأصل أنها قبلت إلحاح حبيبها السابق لكسر رتابة الحياة اليومية، ولكنها الآن قد ملَّت من رتابة ذلك الإلحاح.

ورغم إفصاحها لها بكل ذلك؛ إلا أن ستسكو لم تبلغ يوشيكو بموضوع تسوتشيا لأول مرة، إلا بعد وعدها له بالسفر معه. وعلى الفور طلبت يوشيكو منها أن تريها صورة تسوتشيا، وظلت لفترة من الوقت تنظر بلا حركة للصورة التي أخرجتها ستسكو، ثم سألت: «هذا الرجل، ما نوع صوته؟»

تسارعت فجأة لقاءات ستسكو مع يوشيكو. كانت يوشيكو على وشك تأجير فيلا في أحد المصايف خلال هذا الصيف، ومن أجل ذلك كان لا بدَّ من الذهاب للبحث عن إحداها، ولأن زوج يوشيكو كان هو أيضًا كثير الانشغال في عمله، فقد اعتمد على زوجته في عملية البحث، وكان من الممكن لها أن تذهب في تلك الرحلة بمفردها، وبالإضافة إلى ذلك يمكن أن تجعلها سببًا لأن تصحب ستسكو معها.

ومن أجل أن تقنع زوجها بهذه الخطة، أبقت ستسكو يوشيكو في بيتها حتى وقت عودة زوجها من العمل في يوم من أواخر شهر مارس، ثم وعند عودة زوجها، بدأت يوشيكو بشكل لا يبدو فيه التعمد الشكوى من شعورها بالوحدة لو سافرت بمفردها في رحلة البحث عن فيلا.

سألتها ستسكو كما كانا قد اتفقا من قبل: «متى ستذهبين؟»

– «في شهر مايو .. يجب أن يكون ذلك خلال شهر مايو بأي شكل.»

– «لو كان الأمر كذلك لكَم أود أن أذهب أنا معك.»

إذا الأمر بهذا الشكل، فليس هناك داعٍ لإقناع الزوج، بل على العكس هو الذي قام من نفسه بتشجيع ستسكو المترددة على فعل ذلك.

بل وفي النهاية قال الزوج ما يلي: «يبدو الأمر كما لو كنتما مثليتين.»

– «بل هو الأمر كذلك في الواقع يا عزيزي.»

قامت ستسكو ويوشيكو بملامسة خديهما المرهقان من وضع المساحيق البيضاء عليهما حتى وقت متأخر من الليل.

لم تستطع ستسكو النوم تلك الليلة من السرور، وقد اعتقدت أن كل الأمور يبدو أنها ستسير على ما يرام، واعتقدت أن الأمور ستُنفَّذ بسهولة ويسر. لو لم يكن زوجها رجلًا يغرق في النعاس بهذا الشكل، لكان لا يمكن بحال ألا ينتبه إلى فرحة زوجته غير العادية تلك، وانتبه إلى جسدها الذي انتعش بسخونة غير مفهومة بسبب الفرحة. تأملت ستسكو زوجها الذي أصبح في عالم الأحلام بالفعل، وهو يبدل وضعية نومه، وشعرت بقلق دائمًا ما تنساه بشكل لحظي، وهو ألا يمكن أن تصل درجة عنفوان فرحتها إلى أن يُحس بها زوجها في أحلامه.

كلما كانت الفرحة كبيرة، مرت وانتهت بسرعة. في اليوم التالي أصابت التعاسة ستسكو.

كما قلت من قبل، ما كانت تحاول ستسكو فعله هو حب خيالي. حب تسميه ستسكو حب الفضيلة.

وفي وسط التفكير الذي لا تتعمق فيه ستسكو بالتحليل لهذه الدرجة، صورة الزوجة الفاضلة التي حرصت عليها لفترة طويلة حتى الآن، صارت في الواقع لها تعريف مبهم وغير واضح بدرجة كبيرة. فقد كانت منطقة الخيال لا تزال تنتمي للفضيلة، ولكن الواقع ينتمي إلى الرذيلة، وكنتيجة لتلك الأفكار، وحول الفعل الذي ظهر للعيان، كانت ستسكو أكثر حزمًا وصرامة، ومن أجل هذا بالذات، تعاملت حتى الآن بسماح كبير للغاية داخل نطاق الخيال.

كانت ستسكو تفكر أنه مهما كانت الرغبة شريرة، طالما تم حصرها في مجرد نية قلبية، فهي تنتمي للفضيلة، وبالتالي مهما أخذ الفعل الواقعي شكلًا لطيفًا ووديًّا وبريئًا فهو ينتمي لعالم الرذيلة. بهذا الشكل فلمس جسد تسوتشيا، يجعل ستسكو ترتعد من ذلك الحنان وتلك التلقائية، وهذه البراءة. حدثَت فوضي داخل ستسكو في قيمة العواطف؛ لأنها رغم أن الخيال مهما كان شريرًا لم يكن ليجعل قلبها يعاني؛ إلا أنها لا بدَّ أن تشعر أن الحنان والعفوية والبراءة وغيرها من العواطف المرحة البشوشة هي شرور وخبائث، وإذا كان الحنان والبراءة اللذان تتذوقهما بعد غياب طويل سيكونان سببًا في إيلام الضمير، فسيتطور الأمر لتعتبر أن التخطيط الأناني والحسابات الباردة الدنيئة هي فضائل.

كانت ستسكو ذات التفكير الأخلاقي حقًّا، تعتقد أن المعاناة من تلك التناقضات هي ما يُسمَّى «تأنيب الضمير»، وعندما تتذكر كيف أنها بالاشتراك مع يوشيكو قد خدعا زوجها بسهولة ويسر في الليلة الماضية، يصل حقدها ليوشيكو كذلك، وهكذا أثناء مرور ساعات تؤنب نفسها بصرامة، عادت تشتاق إلى السعادة وراحة البال التي كانت تجدها في التخيُّلات غير الضارة التي فقدتها للأسف الآن، ومتعة الفضيلة التي كانت مِلك يديها.

الآن بدأت ستسكو تمقُت حتى الحنان غير المتوقع، والعواطف العفوية، والمداعبات البريئة. بذلت جهدها للعودة ولو غصبًا، إلى الأشياء المضادة لذلك التي ادخرتها من أجل زوجها.

أي العودة إلى صحراء العواطف، والتخيُّلات الشهوانية، والعودة إلى ساعات ما بعد الظهيرة التي بلا طائل والتي ليس لطولها نهاية.

كانت ستسكو تبذل جهدها هذا بهدف أن تكون مخلصة لزوجها، ولم تحاول التفكير هل بالفعل يرغب زوجها في ذلك أم لا، حتى لو لم يكن زوجها يرغب، فجوهر الفضيلة وإخلاص الزوجة لزوجها، يحتِّم عليها أن تكون هكذا، وعلى العكس كان ذلك من أجل ستسكو نفسها، ففي الأصل زوجها لا يُبدي أي رغبة على الإطلاق؛ لأنه نائم على الدوام.

وبهذا الشكل تنطلق ستسكو بطريقة تفكير جيدة التربية والمعتدلة في الأصل، ولكنها لن تنتبه إلى أنها تصطبغ تدريجيًّا بأفكار مسمومة وخطيرة لدى باقي سيدات المجتمع، وربما لم يزِد الأمر عن مجرد الخوف مع تتبع حلاوة مذاق تخيلات الماضي حتى النهاية، كانت تخاف من براءة وحنان المستقبل. ليس هذا فقط بل إنها لأول مرة تحس بالقلق من حب تسوتشيا.

«إذا سمحت له مرة، ألا تكون تلك هي المرة الأخيرة ويرميني بعدها؟ ألا يكون غرض هذا الرجل هو جعلي متعته لفترة مؤقتة وسريعة وفقط؟»

لقد تولدت فجأة داخل ستسكو رغبة قوية في إبلاغ زوجها بكل شيء، ولكن كانت تنقصها العفوية لكي تكون رغبة مفاجئة، ولكن على أي حال، قد تأخر الوقت كثيرًا لميلاد مثل تلك الأفكار، فهذه أول مرة تفكر ستسكو في تلك الحيلة، التي هي أول ما يخطر على بال سيدات المجتمع العاديات، حيلة إبلاغ الزوج بكل شيء تلك، وذلك سببه أن ستسكو حتى ذلك الوقت لم تكن فكرة أنها تعمل شيئًا غير أخلاقي قد خطرت على بالها، ولو لشذرة من الوقت.

«بعد كل ما حدث فالرعب من نتيجة إبلاغه، يجعلني لا أقدر على إبلاغه بالأمر أبدًا .. فأولًا، هل أنا قادرة على قول اعتراف أعرف تمامًا إلى أي مدًى يجرح زوجي بكل صراحة؟»

بعد التفكير لفترة، وصلت لحالة من الغضب لمعرفتها باستحالة ذلك، وشُلَّ تفكيرها، ولكن من جهة أخرى كانت ستسكو قد نسيت تمامًا طريقة الحل الأسهل بالدرجة الأولى. طريقة الحل من الدرجة الأولى .. ألا وهي مجرد إلغاء السفر، يحل المشكلة.

تشمُّ ستسكو رائحة الذنب في أي عاطفة حب بريئة وحنونة وحلوة تجاه صغار الطيور، أو الزهور أو الأطفال (حتى لو كان طفلها استثناءً)، تشعر ستسكو الآن من تلك المشاعر الحلوة التي تُحس بها أي سيدة، بالذنب بسبب تلك البراءة، وتُحس أنها لن تستطيع أن تحب أي شيء جدير بالحب، فكانت كأنها تختنق، بالطبع كانت ستسكو قد أضافت إلى طابور الأشياء الجديرة بالحب مثل الزهور وصغار الطيور، أضافت بمهارة شديدة ذراع تسوتشيا كثيف الشعر.

الفصل الثامن

مهما كانت الخطة الكبرى مزلزلة فهي أيضًا عندما يستقر القلب عليها وتنهي استعدادها، تأتي للمرء قبل البدء فيها، مشاعر تشبه الطمأنينة. وعندما اقترب موعد السفر، وصار بعد يومين أو ثلاثة أيام، أصاب القلق ستسكو سريعًا.

لقد حُجِز الفندق لفردين بالفعل، وحُدِّد موعد التلاقي معًا، وحُدِّدت خطوات اتصال أحدهما بالآخر لو حدث شيء غير متوقع منعه من الحضور، وحتى لدرجة أن تناقشت ستسكو مع تسوتشيا في تفاصيل الأشياء الرفيعة التي سيأخذانها معهما في الرحلة.

كان شهر مايو من ذلك العام جميلًا، ورغم ذلك في بدايته كانت هناك أيام اشتد فيها الحر بدرجة كبيرة، ولكن كان الوقت لا زال مبكرًا جدًّا على موسم خروج الناس إلى مراعي السهول المرتفعة.

ظلت ستسكو طويلًا تتأمل ابنها كيكو، وهي تفكر إلى أي مدى يؤثر قرارها على هذا الطفل (تعلمت ستسكو بدون وعي وبدون أن تدري التفكير!) هل يمكن القول إن هذا الطفل يملك منذ ولادته رخصة انتقادي؟ ما هي علاقة العالم الذي يسكن فيه هذا الطفل بالعالم الذي أحاول أنا الآن أن أعيش فيه؟ الطفل يذهب إلى عالم الأطفال فقط، الأم تعود فقط إلى أصلها كامرأة.

تنبهت ستسكو إلى نفسها وهي تتأمل لأول مرة كيكو كما لو كان أحد الأطفال اليتامى في مكان ما، تتأمله كطفل خالص النقاء تمامًا. كان عبارة عن وجود قوي ومتين لا يجب التعدي عليه بأي حال. حتى لو كان داخل رأسه .. اللعب أو «الاستغمابة» أو ما يحب أو يكره من الطعام، أو قلقه من أن يكتشف أحدٌ كنوزَه التي خبأها أسفل أشجار حديقة المنزل .. حتى لو لم تكن رأسه تمتلئ إلا بتلك الأشياء التي ليس فيها حب للآخر، فرغم كل ذلك كان وجودًا متفردًا، صلدًا كقشرة الجوز.

ثم .. مَن يوجد على الجهة الأخرى، ليس الأم، بل امرأة عادية. أحسَّت ستسكو تجاه كيكو بخجل التعري.

أصاب كيكو الذي ظل يُنظر إليه بتمعن وتفكير، الامتعاض ثم طرف بجفونه، وضحك بفم حاد وذهب بعيدًا إلى الجهة الأخرى من المنزل.

«لربما يتذكر كيكو هذه اللحظة، مع عدم إدراكه لمعناها، بعد أن يكبر ويصبح راشدًا»، هكذا فكرت ستسكو وهي ترتعش من الرهبة «يتذكر هذا الوقت من ذلك اليوم الذي سبق مغادرة أمه فجأة في رحلة إلى مكان ما.»

إذا قارنا بذلك، فقد كان سهل التحمل بدرجة كبيرة وداعها لزوجها عند ذهابه إلى عمله حتى بوابة المنزل صباح يوم السفر.

– «حسنًا، سأعود ليلًا بعد غدٍ سأترك كيكو في عنايتك .. أفهمت؟»

– «لا تقلقي.»

كان رد زوجها بكلمات قليلة وهو ينحني ليرتدي حذاءه. تعطي تجاعيد قفاه تلك، انطباعًا أن هذا الرجل الذي لا يغضب أبدًا، وكأنه يبدو غاضبًا.

بهذا المناسبة، ستسكو التي تعلمَت من حياتها الزوجية الطويلة، أن من أدب الزوجة ألا تتخيل شيئًا طيبًا وحنونًا غير مفيد داخل زوجها، لم تفكر أبدًا أن زوجها في هذه الظروف، أصبح متعكر المزاج من أجل إحساس مباشر لا يلاحظه أحد غيره.

في نهاية الأمر، نظر إيتشيرو كوراقوشي للخلف ناحية ستسكو التي ودعته على غير العادة حتى بوابة المنزل، وأرسل إلى زوجته ابتسامة مشرقة بشكل مبالغ فيه، مثل صباح ذلك اليوم من شهر مايو، وأيضًا كأنه لاعب بيسبول فاز في مباراة، وهو لا يعلم أن تلك الابتسامة لن يكون لها معنى، بل على العكس ستشجع زوجته التي على وشك السفر ذلك اليوم، وهو لا يعلم كذلك إلى أي مدًى تجعل تلك الابتسامة أكثر من أي شيء آخر، زوجته تيأس من عدم قدرتها مهما فعلت على إتعاس هذا الرجل.

كان الوقت مبكرًا جدًّا على موعد التلاقي، ولكن يجب على ستسكو مغادرة المنزل قبل عودة كيكو من روضة الأطفال، فحملت حقيبة السفر وهامت بها في الطرقات من أجل تضييع الوقت؛ تشرب الشاي بمفردها، ثم تدخل محل خردوات. كان وعدها مع تسوتشيا أن يتناولا وجبة الغداء ثم يذهبا معًا إلى محطة القطار.

لم تكن حقيبة السفر ثقيلة لهذه الدرجة، ولكن عيون الناس التي تتأمل ذلك، جعلت ستسكو تغرق في حالة من الوحدة. لقد عرفت لأول مرة أن مجرد حمل حقيبة سفر والسير بها، ثم دخول محل بها لشرب الشاي يصنع شكلًا للوحة مليئة بالوحدة لدرجة كبيرة، ثم

اندهشت من شعور وحدة لا سند له يعذب القلب لهذه الدرجة في وقت خروج زوجة مع عشيقها في رحلة. وقفت ستسكو في ركنٍ من أركان المدينة تنظر في ساعة يدها، فاصطدم بها شخص عابر.

كان المطعم المعتاد هو مكان التلاقي، ويوجد بذلك المطعم صالة انتظار بها أريكة طويلة، وعلى ما تذكر يوجد بتلك الصالة العديد من الجرائد والمجلات المليئة بالصور، عندما تذكرت ستسكو ذلك ذهبت إلى المطعم رغم أنه لا زال يوجد عشرون دقيقة على الموعد.

وضعت الحقيبة عند الأمانات، وجلست على المقعد ثم وضعت رجلًا فوق أخرى، وفتحت فوق ركبتها مجلة كبيرة الحجم. قلبت الصفحات. لم يدخل عينها أي شيء مما يوجد بصفحات المجلة. وشعرت أن النظر لمدة طويلة في صفحة واحدة فيه معاناة كبيرة.

قبل الموعد المحدد بدقائق قليلة فُتح الباب فجأة، وظهر تسوتشيا. وبدون وعي وقفت ستسكو. في تلك اللحظة كانت ستسكو بالفعل قد أسلمت نفسها لتسوتشيا.

الفصل التاسع

بعد رحلة طويلة بالقطار بلغت أربع ساعات، قضى الاثنان الليلة الأولى في غرفة بفندق خالٍ تقريبًا من الرواد في غير وقت الذروة. كان تسوتشيا في الحقيقة غير بارع في المرة الأولى، ولكن ستسكو لم تهتم بذلك؛ بل إن ستسكو لم تكن في حاجة تقريبًا لذلك الفعل في تلك الليلة.

في تلك الليلة كانت ستسكو في الواقع نقية تمامًا مثل النيران ولم تشعر نفسها بأي انطباع جسدي شهواني. حتى الآن كل قطع الإحساس الجسدية الكثيرة التي استقبلتها، رائحة شعر تسوتشيا، شفتاه، ملمس البشرة ... كل تلك الأشياء، وكأنها أصبحت لا أهمية لها بالنسبة لستسكو. لقد كانت مكتفية تمامًا بالحالة النفسية التي قوامها أنها أَسْلَمَت جسدها لهذا الشاب، وإذا قلنا ماذا كانت تشبه ستسكو وقتها؟ فقد كانت تشبه قديسة من الدرجة الأولى.

كما سبق وأن ذكرتُ ذلك من قبل، باستثناء رجليها الطويلتين الجميلتين، وبياض بشرتها الرائق، فهي لا تملك ثقة كبيرة بجاذبيتها الجسدية، وكذلك لا تراهن على انتظار شيء كبير تجاهها؛ ونتيجة لذلك فعدم براعة عشيقها في الليلة الأولى التي كانت تنتظرها على أحر من الجمر، لم يجعلها تفكر في العقاب، بل على العكس جعلها تسامح بعاطفة ودية.

ليس هذا فقط، بل إن ستسكو شعرت على العكس بالفرح لهذه النهاية غير المتوقعة لذلك الشاب الذي يبدو مظهره كخبير في عالم النساء؛ لأنها فكرت بالشكل التالي: «أكيد هو كذلك. تردُّد هذا الرجل الجسدي، هو بالضبط نفس الشيء الذي عانيتُ أنا منه مرارًا حتى الآن؛ أي إن ذلك بفضل الطهارة النابعة من الأخلاق، وهو كرجل يحاول بكل جهده أن يُخفي ذلك بحياء مريب. يا له من مسكين!»

ثم في الصباح الباكر ارتبط جسداهما بعدم مهارة مرة ثانية، ومع وجودهما في غرفة بهذا الفندق الخالي، فقد كان جسداهما يصطدم أحدهما بالآخر كما لو كانا يركبان قطارًا مزدحمًا بالركاب.

عاد تسوتشيا لمرحلة الطفولة بشكل يثير الامتعاض. رفع عقيرته بالصياح بسبب بهرجة شمس الصباح، وأخرج عامود تقليب فحم المدفئة وظل يلاحق ستسكو في الغرفة وهو يقول صيد الوحوش. لفَّت ستسكو الغطاء على جسدها لتحمي نفسها، وظلت تتأمل حركة خصر الرجل وهو يدور ويلف حول السرير، وكأنها تنظر لصبي أصغر منها بسنوات عديدة. ظنَّت ستسكو أنها لا بدَّ هي الأخرى أن تصبح طفلة. ظنَّت أنها إذا أجادت تمثيل كونها طفلة، فستستطيع التحرر من أي خوف أخلاقي مهما كان.

أخيرًا هدأ تسوتشيا، واقترح تناول الإفطار «إياه» عرايا تمامًا. ليس على ستسكو إلا أن تختبئ فوق السرير، وليس على تسوتشيا إلا أن يلتحف مؤقتًا بالروب، ويستلم الإفطار التي تم طلبه بالتليفون، وحُمل إلى جوار النافذة المشرقة بشمس الصباح ثم يُوقِّع بالإمضاء على الفاتورة.

كانت شمس الصباح تخترق حاشية السرير، ومن الإفطار الذي أُعدَّ لتوه يلمع براد القهوة الفضي فوق المفرش الأبيض للطاولة الموجودة بجوار النافذة، وتفوح رائحة الخبز المحمص الملفوف في مناديل.

خرج النادل بالفعل. سألت ستسكو: هل أغلقت قفل الباب؟ بالتأكيد كان القفل محكم الغلق.

ثم قال تسوتشيا الذي كان يقف بجوار النافذة: حسنًا لنقدم خدمة الطعام. ثم خلع على الفور الروب وألقاه بعيدًا. كان شعر جسمه الكثيف للغاية، يلمع بلون ذهبي في شمس الصباح.

وكانت ستسكو لا تزال تلفُّ جسمها بملاءة السرير. قال تسوتشيا وهو ينزعها عنها: يبدو أنه خبز محمص. لم ترفض ستسكو ذلك. تحول شعر ستسكو أيضًا للون الذهبي داخل شمس الصباح على أطراف السرير.

لم يهتم الاثنان بفتافيت الخبز المحمص التي تسقط فوق جسديهما، وتناولا الإفطار وهما يشدان جانب البطن بعد أن تفاجآ بسخونة براد القهوة الفضي التي لم تكن متوقعة. لم يكن أبدًا إفطارًا شهوانيًّا كالذي حيَّر عقل ستسكو في تخيله في الماضي. على العكس يمكن القول إنه كان إفطارًا طفوليًّا بريئًا.

«إنني أصحبت لا أحتاج للجسد.»

عبَّرت ستسكو عن مشاعرها بهذا التعبير السيئ، وعندها اعتقد تسوتشيا أنها تمزح، فحادَ بالكلام قليلًا قائلًا: «لو لم يكن هناك جسد، لم يكن ممكنًا ركوب القطار والمجيء إلى هنا.»

اندهشت ستسكو من كرمها الزائد منذ ليلة أمس، فحاولت باستخدام العديد من الحجج ونبرة كلام مدربة، أن تزيل أي فكرة احتقار تجاهها ربما تكون قد تولدت بالفعل داخل تسوتشيا.

قالت ستسكو السبب هو أني أحبك بصدق، ثم جعلت تسوتشيا يقسم ألَّا يستخدم كلمة «لعب» في المستقبل.

بعد الانتهاء من تناول الإفطار، خرج الاثنان للتنزه. رغم أن الوقت هو شهر مايو؛ إلا أن الأشعة فوق البنفسجية كانت شديدة في مراعي المرتفعات. قالت ستسكو ذلك بين حين وآخر، وثمرة ذلك أنها أصبحت حجة لشراء نظارة شمس، بسبب الخوف من السير ووجهها مكشوف. مرَّ الاثنان على محل للساعات، مسح البائع التراب الذي يعلو نظارة شمس قديمة من العام الماضي بخرقة، وقدمها لهما فاشتراها كما هي.

باستثناء الأجانب الذين نادرًا ما يمرون في نزهة، لم يكن هناك من اليابانيين إلا أبناء البلدة. إلى أي مدًى تفيد النظارة الشمسية؟ فكَّرت ستسكو في ذلك أثناء السير. هي الآن تحقق بنفسها حلمًا لها بأنها في يوم في الأيام تسير في مراعي المرتفعات باصطحاب تسوتشيا وقد أخفت وجهها بشكل طبيعي بنظارة شمس. ثم إن السير بإخفاء الوجه هو بالذات أحد عناصر الفرحة التي لا يمكن الاستغناء عنه.

بعد الظهيرة أمطرت السماء، بل ودوَّى هزيم الرعد. عاد الاثنان إلى الفندق، وجلسا عند المدفأة التي في بهوِ الفندق. كان نزلاء الفندق هما الاثنان، بالإضافة إلى عجوز أجنبي غريب الأطوار فقط. وقفت ستسكو للذهاب إلى دورة المياه، وعندما عادت رأت جماعة من الرجال تدخل البهو من سيارة وصلت لتوها إلى مدخل الفندق. في تلك اللحظة، اكتشفت ستسكو وسط تلك الجماعة وجهَ عمها الجانبي. حاولت ستسكو أن تختبئ، فأسرعت بالجري داخلة للمكتبة، وجلست تجاه مقعد شبه مظلم في أعمق مكان. لحِق بها تسوتشيا عندما فوجئ بفعلها هذا غير الطبيعي. كانت ستسكو ترتعش وقد خبأت وجهها فوق المكتب.

كانت المكتبة التي بلا مدفأة باردة للغاية. تمطر السماء في الخارج، وظلام الظهيرة راكد. قناني الأحبار الزجاجية فوق أغلب مكاتب الكتب تشفُّ عن لون الحبر ببرودة كبيرة.

شدت ستسكو يد تسوتشيا ووضعتها على صدرها، وأعلمته بمدى الخفقان الشديد لديها. ثم أخيرًا تحدثَت عن سبب تلك الدهشة الكبرى. شاهد تسوتشيا كذلك مجموعة الرجال هؤلاء. إنهم جماعة غادروا طوكيو بالسيارة في الصباح الباكر وجاءوا ليمارسوا رياضة الجولف. عادوا للفندق بسبب الأمطار، وقال تسوتشيا إنه لو سألْنا استقبال الفندق سنعلم إن كانوا سيبيتون الليلة في الفندق أم يعودون مباشرة إلى طوكيو. طلبت منه ستسكو أن يفعل ذلك.

أخيرًا عاد تسوتشيا، وقال على الأغلب تلك الجماعة قد ذهبت إلى مطعم الفندق لتناول وجبة الغداء. وبعد تناول الطعام سيغادرون إلى طوكيو، فلا داعي للقلق، ومن الأفضل العودة للغرفة في تلك الأثناء.

وقفت ستسكو بعد أن استندت على تسوتشيا، ولكن كانت رجلاها الجميلتان لا زالت ترتعش، ولكنها كانت واثقة أن عمها لم ينتبه إليها. بعد العودة إلى الغرفة وقبل حتى التأكد من غلق الباب أو عدم غلقه من الداخل بإحكام قالت ستسكو لعشيقها احضنِّي بكل ما تستطيع من قوة. أحسَّت ستسكو أن بقايا حلاقة ذقن تسوتشيا الخضراء كأنها أشواك تلمس شفتيها، ولكنها صارت أخيرًا بُرهان أمانها.

كان الاثنان يتصلان من وقت لآخر بمكتب الفندق. وقالا بكل وضوح إن تلك الجماعة بها أحد الأشخاص الذي لا يرغبون في مقابلته، ثم يسألون هل غادروا أم لا؟ ولكن كانت الإجابة أنهم لا زالوا يستريحون في البهو. وأنهيا الاتصال بعد أن طلبا أن يتم إبلاغهما فورًا عند مغادرتهم، ولكن لم يصل بعدُ ردٌّ أنهم غادروا، فعاوَدا الاتصال مرة أخرى. لا تزال الجماعة كما هي تستريح في البهو .. أصبحَت الغرفة سجنًا يحبسهما. يُسمع صدى الرعد من بعيد، والأمطار مستمرة بدون توقف، والغرفة يغلِّفها الظلام. ولأنه لا يمكن رؤية بوابة الفندق من النافذة؛ لذا لا يمكن معرفة هل تحركَت السيارة أم لا. ولا تسمح ستسكو بإضاءة أنوار الغرفة. ظل الاثنان ينتظران الاتصال الهاتفي وهما يكرران الوقوف والجلوس وقلباهما في ترقُّب وتلهُّف.

وسط ذلك، ولحظة تلاقت فيها العيون، لمحت ستسكو في عمق العين، ضوءًا ضئيلًا ضاغطًا كأنه يحاول تلجيمها. قبلة خفيفة قلقة. أنزل تسوتشيا بتسرُّع سرواله، وفكت ستسكو رباطها. كل حركة من حركات خلع الملابس تلك، كانت سريعة بدرجة غريبة، وفي نفس الوقت هادئة، وحركة أحدهما متطابقة تمامًا مع الآخر لحظة بلحظة، وكره الاثنان بذل جهد في نزع غطاء السرير. وسط ظلام الظهيرة الذي يفوح فوق السرير، وحتى تُدفن

تمامًا في زفرات عميقة، استمر لأول مرة تلاحمهما بدون أن يكون ملتبسًا ولو بشكل ضئيل، وتأثرت ستسكو بتدافع عضلاته عضلة، عضلة. لقد وُلد تسوتشيا من جديد. لقد صار هذا الشاب عشيقًا مؤكدًا وبارعًا.

لم يخلع الاثنان ملابسهما الداخلية بل ظلت مرفوعة حتى العنق. وعندها رشفت ستسكو حبات العرق التي لمعت على شعيرات صدر تسوتشيا. رائحة ذلك الجسد المظلم الحلوة، يبدو أنها لأول مرة تصير شيئًا ذا معنًى عميق.

كان وصول الهاتف الذي يُعلن رحيل المجموعة بعد ذلك مباشرة. كانت المجموعة تنتظر توقف الأمطار. من خلال النافذة كانت أشعة شمس خفيفة تشفُّ خلف غيوم ما بعد المطر الفوضوية.

وقفت ستسكو، فكان جسدها يفيض حيوية، ويعطي إحساسًا بالمرونة وكأنه يحتوي على ألواح من الصلب الرفيع في أطراف كل أصبع من أصابعها، وعندها أحسَّت ستسكو أنها برِئت من مرض ما.

في وقت الغروب من اليوم التالي عاد الاثنان إلى طوكيو، فتناولا وجبة العشاء معًا، ثم شاهدا فيلمًا سينمائيًّا له شعبية، يحكي قصة عشق امرأة متزوجة لرجل آخر. لم يحدث لستسكو من قبلُ أن شاهدت نفسها وقد عُكست في فيلم بواقعية إلى تلك الدرجة. انتبهت إلى فتاة صغيرة تشاهد الفيلم في المقعد الذي بجانبها، وأحست ستسكو بكبرياءِ مَن يتمتع بخبرة وفيرة. لقد تذوقت ستسكو متعة الخبراء .. متعة أن تشاهد فيلمًا يحكي حقيقة لا يعرفها إلا أنت وعدد محدود جدًّا من البشر. مثلًا متعة عالم الكيمياء، الذي يشاهد فيلمًا عن سيرة أحد علماء الكيمياء، ويبتسم في خفة أو يهز عنقه بوجهٍ جهم.

في الساعة التاسعة مساءً عادت ستسكو إلى بيتها ورافقها تسوتشيا. وبمنتهى الجرأة تعمدت أن تجعل تسوتشيا يأتي إلى قرب البيت بأربعة أو خمسة بيوت.

الفصل العاشر

صارت ستسكو أكثر حنانًا بسبب السعادة، ولكنها لم تستطع إغداق ذلك الحنان على زوجها الذي لم يغير عادته في الغياب دائمًا عن البيت؛ ولذا فقد أغرقت على طفلها كيكو حبًّا جمًّا.

أحيانًا ما تبدو في ابتسامات كيكو الذي يتقبل بها هذا الحب، ملامح المعرفة، وكأنه يعرف أسرار الحب الذي كانت غارقة فيه. بالطبع لم يكن ذلك إلا مجرد ظنون ستسكو فقط، ولكن ضمن هذه الظنون، تحلم ستسكو بمشاركة المشاعر مع كيكو، بل وحتى شعور التآمر معه.

في كل الأحوال، لم تشعر ستسكو بانحرافها ولكنها شعرت بالنظام الذي عادت الحياةُ إليه. وجود تسوتشيا أصبح في وقتٍ ما حقيقة ثابتة، وأحسَّت أنها حتى لو لم تفكر فيه، فعلى ما يبدو سيسير كل شيء على ما يرام، لدرجة أنها أصبحت تعتقد أنه لا حاجة تقريبًا لتسوتشيا.

ورغم ذلك، في اللحظة التي من المفترض أنها لا تفكر فيها في أي شيء، يبرز فجأة إلى وعيها بشكل مبهرج وزاهٍ صوت قرقعة جلد التمساح المحببة إليها، عندما يقوم تسوتشيا بإحكام حزام البنطال حول خصره.

ولكن ليس معنى هذا أن تلك الذكريات تخيفها، ولكن مع ذلك فستسكو مبتسمة ومتسامحة، وتأمل أن تتقاسم سعادتها مع كل شخص تقابله؛ ولذا حرصت على الذهاب إلى حفل الشاي المعتاد، وكانت تتحدث بكل صراحة ووضوح. ويحمرُّ خداها أثناء الكلام، وصوتها غني ورائق. مَن يا ترى قد انتبه إلى أنها تتحدث عن حبها، عندما تحدثت عن عدم وجود مكنسة كهربائية بلا صوت مزعج؟

ولا داعي للقول إن ستسكو في الليلة التي عادت فيها من السفر، تحدثت مع زوجها عن الرحلة، ومِن أجل ألَّا تكون هناك مشكلة لو سأل زوجها يوشيكو فيما بعدُ عن نفس الشيء حدثته فقط عما كانت قد اتفقت فيه مع يوشيكو مسبقًا، ولكن زوجها كان بدلًا من أن يسأل عن أحوال ستسكو أخذ يسألها كثيرًا عن حركات وسكنات يوشيكو؛ ونتيجة لذلك أخذت ستسكو تغزل أحداثًا روائية كاملة من وحي خيالها. هل يوجد احتمال أن تكون يوشيكو وزوجها يتحابان، وأنهما قضيا ليلة غيابها معًا وهما يضحكان من غباء ستسكو التي لا تعلم شيئًا؟ ألا يُحتمل أن يكون زوجها يسأل أسئلة أشرِّ الناس سبيلًا؟

بالطبع لم تشعر ستسكو بأقل قدر من الغيرة، ولكن عند مجيء اليوم التالي، سألت الخادمة عن ساعة عودة زوجها للبيت. لم يبِت زوجها خارج المنزل، ولكن تأخرت عودته للمنزل في كلتا الليلتين بشكل لافت جدًّا. هل يا تُرى قابل يوشيكو خارج البيت؟

لم تكن قوة الخيال الروائية تلك التي تولدت داخل ستسكو الوديعة بدرجة اعتبار أن الكذب هو الذي أصقلها. لقد كانت خيالات ستسكو حتى ذلك الوقت في منتهى البساطة، ولكن عندما يتحقق الخيال لمرة، يتغير إدراكها للعالم، وتبدأ تحس وكأن العائلات في أركان العالم المختلفة مرتبطة بعضها ببعض بأنفاق أرضية سرية، لو أن يوشيكو وزوجها يتحابان حقًّا، هل يا تُرى ستشعر تجاه يوشيكو بعلاقة صداقة أعمق مما هي عليه الآن؟ كانت ستسكو تفكر أنه على الرغم من أن الفضيلة تجعل الإنسان وحيدًا إلى درجة كبيرة، إلا إن الرذيلة على العكس تجعل علاقة البشر أفضل وكأنهم إخوة.

وعندما أتاها الطمث، بعد أن عادت من الرحلة بعدة أيام، وصل إحساس السعادة عند ستسكو إلى القمة. كانت تلك علامة على أن كل شيء تم غفرانه وأن كل شيء تم قَبوله، والحزن الذي كان يأتيها دائمًا قد انعدم، وكان قلبها قد أصبح خفيفًا بعد استعادته توازنه. بل وحتى الذكريات الأليمة لم تأتِ كي تعكر صفو ذلك الهدوء وتلك السكينة. يا لها من ذكريات أليمة! تذكرت ستسكو الجنين الذي أجهضته، ثم فهمت الآن أنها عندما أحست بأنها قد شُفيت من شيء ما، بعد انتظارها مع تسوتشيا ذلك الاتصال الهاتفي، أنها قد شُفيت حقًّا من تلك الذكرى الأليمة.

كانت ستسكو في حالات الإرهاق النفسي غالبًا ما تستدعي مدلكًا للجسم، ولكنها هذه المرة أصابها القلق من فرط السعادة والنشاط، فاستدعت المدلك. كان المدلك رجلًا نحيفًا كالشجرة الذابلة بلا مشاعر يضع تلك النظارة السوداء المميزة.

كان ذلك المدلك لديه عادة أنه أثناء تدليكه جسد ستسكو كثيرًا ما يسألها أسئلة جارحة بطريقة في غاية الأدب، وبدون ظهور أية مشاعر على وجهه، ولم تكن ستسكو تغضب لأنها ظنت أنها عادة لديه تربى عليها.

– «المعذرة يا سيدتي، هل هذا هو وقتها الآن؟ أعني تلك التي تأتي مرة كل شهر؟ هل هو كذلك؟»

– «نعم هو كذلك. عجيب جدًّا أن تعرف ذلك.»

– «لأن تلك مهنتي يا سيدتي .. آه لقد سألتك سؤالًا محرجًا، أعتذر، أعتذر بشدة.»

كانت أصابع ذلك الرجل جامدة مثل الخشب، والألم الذي يلتهم لحم ستسكو الأبيض اللين، في بعض الأحيان كان عبارة عن شعور رائع ممتع يجعل العيون تنتبه من سباتها. أحيانًا كانت تأتي ستسكو أوهام أن تلك الأصابع تُشع منها أشعة شمس الصباح.

ذهبت ستسكو مع زوجها الذي دعا أحد الأجانب وزوجته على علاقة معه في العمل لمأدبة في أحد المطاعم. كان الرجل وزوجته ذوَي شعر أبيض جميل.

لم يكن هناك أي تقصير في أداء ستسكو الاجتماعي. لم تكن لديها حرية كبيرة في مسألة التحدث بلغة أجنبية، ولكن اهتمامها بهما من القلب، وابتسامتها وتواضعها لهما، كل ذلك جعل الضيفين يحسان براحة شديدة. بعد انتهاء الوليمة وأثناء عودتهما في السيارة أعرب زوجها من شدة امتنانه لها، عن رغبته في إعطائها هدية، وذكر مقترحًا أسماء منتجات عديدة ومتنوعة. سمعت ستسكو ذلك وهي تضحك غير مبالية، والسبب أنها لم تكن تريد شيئًا.

ويبدو أن زوجها قد فهم خطأ ذلك الرفض اللين والصارم في نفس الوقت؛ فقد كانت ملامح وجهه وكأنها استدعت ضميره وأيقظته لحظيًّا. في تلك الليلة رغب فيها زوجها بعد غياب فترة طويلة.

كانت ستسكو لديها من الهدوء والسكينة الكثير؛ فهي حتى الآن لم يسبق لها أن رفضت زوجها، ولكنها هذه الليلة بالذات وجدت سببًا معتبرًا للرفض.

قالت ستسكو لزوجها: «أرفض أن يكون ذلك على سبيل الشكر، فما فعلته الليلة في الوليمة هو الأمر الطبيعي.»

وعندما رُفض بهذا الشكل أصبح زوجها أكثر إلحاحًا، وقد نسي النعاس الذي يكون عليه عادة، ويبدو أنه كان يعتقد أن زوجته لا تزيد عن أنها تتمنع قليلًا.

رغم أنه الرفض الأول لها، إلا أنها كانت في منتهى البراعة؛ فلقد هربت بمهارة كبيرة مثل الحزام الذي يذوب في الماء، مع الابتسام بدون أي عنف أو معارضة شديدة.

«ماذا تريدين بالضبط؟ هل حقًّا لا تحتاجين لشيء؟»

كانت إجابة ذلك السؤال هي ما ظلت ستسكو نفسها تفكر فيه لفترة طويلة، ولم يكن هناك انتقام أكثر فخامة من ذلك.

«أنت رجل غريب. إن مجرد وجودك بجانبي يشعرني بالسعادة.»

كان أول لقاء مع تسوتشيا بعد الرحلة ممتعًا. مجرد تبادل النظر معه جعل ذكريات وتفاصيل الرحلة تتدفق في قلبها.

كان تسوتشيا يرتدي أسفل معطف خفيف اللون قميصًا رياضيًّا أسود اللون مفتوحًا من الصدر. لقد تذكر قول ستسكو إنها لا تحب أربطة العنق. كان عنقه القوي السمين يظهر من ياقة القميص المفتوحة مثل ذراعه التي تظهر من كم القميص المشمر. أحبت ستسكو ذلك العنق، ولأنها في الآونة الأخيرة إذا أحبت شيئًا قالت ذلك بلسانها مباشرة، فعلى الفور مدحت ستسكو ذلك العنق، وتمتعت برؤية الشاب وقد تورَّد وجهه خجلًا، ثم على الفور قال تسوتشيا إنه يحب ساقَي ستسكو. سكرت ستسكو بحنان ذلك الأسلوب المهذب الذي بلغ مداه في تلقائيته وطبيعته.

قال تسوتشيا ذلك لأول مرة وهو لم يسبق له حتى وقتها نوعًا ما الكشف عن ذوقه، مما أسعد ستسكو. كان يكره الجوارب التي لا توجد بها خياطة مطلقًا والتي ينتشر استعمالها في الفترة الأخيرة؛ فالخط الرأسي للجورب من الخلف ذو اللون البني المحروق في غاية الأهمية، ويقول إن غيابه يسبب انخفاض درجة جمال الساق وكذلك انخفاض قيمة الجورب إلى النصف. فكرت ستسكو في الاستغناء عن كل الجوارب الموجودة في خزانة بيتها التي ليس بها خياطة وإلقائها في سلة القمامة، ولحسن الحظ أن الجورب الذي ترتديه اليوم به خياطة.

بعد وجبة العشاء قادها تسوتشيا إلى فندق يقع بعيدًا عن مركز المدينة. عند المدخل تعاملت عاملة الفندق مع تسوتشيا معاملة الزبون الجديد الذي يأتي لأول مرة. شعرت ستسكو التي لم تكن قد تعلَّمت بعدُ أن مثل هذه الأماكن تتعامل بهذه الطريقة مع أي زبون مهما كانت درجة تردده عليها. شعرت بشعور محبب بشكل متساوٍ تجاه تسوتشيا الذي بدا متصلبًا قليلًا، وكذلك تجاه العاملة التي لا تبدي أي لطف في تعاملها. كانت الغرفة الغربية التي قادتهما إليها توجد في نهاية ممر دائري وتُطل على بِركة.

وسمعت ستسكو صوت قفزات أسماك الشبوط في تلك البركة. أغلق تسوتشيا ستائر النافذة، وجلست ستسكو على مقعد أنيق بدون مسند للظهر. وقف الفتى خلفها وبدأ

في فتح أزرار فستانها الخلفية. «فُتح الزر الأول». هكذا فكرت ستسكو، «فُتح الثاني». أحست بأصابعه ترفع شعرها الخلفي إلى أعلى. ثم فُتحت كل الأزرار، وانكشف كتف وظهر ستسكو الحنونين الفاخرين.

لم تكن هناك ضرورة أن تتذكر ستسكو في ذهنها خط كتفها الجميل المائل في ليونة؛ لأن شفاه تسوتشيا كانت تزحف بإخلاص على ذلك الخط، وأخيرًا لمست بشرة خدوده الخشنة المتوهجة ظهرها.

ودون أن تشعر وجدت أن الفتى واقف ملصق جسده بظهرها تمامًا، ثم انحنَى ما فوق صدره من جسده فقط، وبدأ يحتضن رأس ستسكو من الخلف بعنف. كانت أنفاسه تخترق شعرها وتتوه داخله، وفجأة أحست ستسكو بعلامة حبه لها في بشرة ظهرها ...

في طريق العودة ذهب الاثنان إلى نادٍ ليلي افتُتح حديثًا بجوار بيتها. الطريق إلى ذلك النادي كان مظلمًا وغير معبَّد، وعلى جانبيه توجد مخازنُ للأخشاب. كانت أشعة أعمدة الإنارة الخافتة هي فقط التي تُنير مواضع أقدامهما.

توقفت ستسكو عن السير، وأدارت جسدها ونظرت إلى الأرض التي خلفها، ثم قالت لتسوتشيا: «انظر! هل خياطة الجورب ملتوية؟»

ابتسم تسوتشيا ثم استدار خلفها على الفور وانحنى انحناءة عميقة: «لا .. ليست ملتوية.»

كانت تلك بالنسبة لستسكو لحظة سعادة بالغة للغاية، لا يمكِنها إجادة التعبير عنها.

الفصل الحادي عشر

لم يتعهد لها تسوتشيا على المستقبل إطلاقًا، ورأت ستسكو أن ذلك بسبب سلامة طويته، وكذلك لأنه رجل يقوم بالمقابلات الغرامية بدقة متناهية؛ فهو لم يسبق له أن فقدَ السيطرة على مشاعره، ورغب في اللقاء بشكل مفاجئ وطارئ. ربما ذلك لأنه منشغل للغاية بعمله غير المنتظم، وتوجد لديه ضرورة في إعطاء الحب بعضًا من القواعد والنظام، ولكن القلق الذي شعرت به ستسكو قبل السفر، القلق من أنه ربما يرميها بعد أن تعطي له نفسها، أصبح من الواضح تمامًا أنه مجرد خوف بلا أي أساس على الإطلاق؛ فلا يُفترض أبدًا أن يقوم هذا الشاب ذو الأخلاق العالية حقًّا، بفعلٍ كهذا.

من خلال مثل تلك الشروط المختلفة المرتبطة بالضمير، إذا رغبت ستسكو فمن الممكن بشكل أو بآخر أن تبحث عن أسباب للغيرة وتجدها؛ ولكن لا زال الأمر مبكرًا للوصول إلى هذا الحد.

بعد تخطي إحدى قمم الجبال يصير الحب قادرًا على إيجاد بيتٍ له. يمكن إقامة بيت من العاطفة. يصبح من الممكن السكن في كل لقاء سري في بيت شفاف لا يُرى بالعين، دون سؤال الطرف الآخر عن حركاته وسكناته أثناء فترة الفراق، ولكن رغم أن ستسكو لم تبدأ الغيرة بعدُ على تسوتشيا؛ إلا أنها شعرت بعدم رضًا عن عدم إحساسه بأي غيرة عليها من زوجها.

أما بالنسبة لتسوتشيا فلم يكن به أي تغيير في تلك النقطة عما كان عليه من قبل (إذا أمعنَّا التفكير، فلم يكن تسوتشيا قد تغيَّر أي تغيير في كل الأمور عما كان عليه من قبل)؛ فهو يسعد بحديث ستسكو عن زوجها، ويسعد بتقليده إياه في عاداته المضحكة. يضحك ببراءة عاوجًا فمه بشكل سيئ الأدب وكأنه تلميذ في مدرسة متوسطة، ثم حتى لو

أخذنا ضحكته تلك على أنها ضحكة فخر بالنصر، ولكن يوجد تساؤل هو: إلى أي مدًى كان تسوتشيا يتعامل بجدٍّ مع زوجها كعدو؟

كان يوجد خللٌ في قواعد الحماس لدى ذلك الفتى. لقد ذكرتُ من البداية أن ستسكو لا تهتم بالقراءة، ولكن إذا حكمَت من خلال بضعة الكتب الضئيلة التي قرأَتها، في الروايات التي تحكي عن نفس الحالة فلا يوجد بطل يشبهه بأي حال؛ أي نعم شكله يوافق هوى وذوق ستسكو، ربما كان يبدو أحد الأبطال كذلك، ولكن تحرُّك مشاعره، وردة فعله، وأفعاله، وحماسه ... إلخ، ويبتعد كل شيء بدرجة كبيرة عن المثال الروائي المألوف، وتكون هذه الدرجة الكبيرة من الهدوء والاتزان في غاية الغموض والإبهام.

ولأن ستسكو لا ترى عشيقها إلا بعين امرأة؛ فهي لا تكتشف في ذلك أي شيء مطلقًا، ولكن لو كانت امرأة مثقفة هي التي تنظر لتسوتشيا، لربما قرأَت في مشاعره الواهنة والضعيفة بلا سبب تلك الصفات التي يتميز بها أبناء هذا العصر خاصة.

مع تتابُع لقاءاتهما، وجدت ستسكو أن تسوتشيا يغيِّر الفنادق من حين لآخر، وبدأت تتعرف على الحوادث الصغيرة المتعددة لكل مكان من تلك الفنادق المؤقتة. كان ذلك هو أول مجتمع تتعرف عليه ستسكو بحق؛ نزيلة الفندق التي تُسارع إلى إخفاء وجهها إذا قابلتها زبونة في الممر صدفة. وهناك أوقات لا تدري فيها هل هي موجودة الآن في فندق أم في مستشفًى بسبب سيارات الإسعاف التي تصل فجأة أمام الفندق لحادثٍ ما، وبعد ذلك صوت البكاء الحاد والمشادات الكلامية في الممر ...

حتى داخل الغرف تقع الحوادث الصغيرة بلا انقطاع؛ مثلًا الحادث الذي حصل عندما كانت تقوم بإصلاح مكياجها استعدادًا لمغادرة الفندق، لسببٍ ما سقط قلم أحمر الشفاه داخل الحوض، ولأن ذلك القلم من الصعب الحصول عليه داخل اليابان، استدعت مسئول الإصلاحات في الفندق، وأحدث جلبة عظيمة حتى استطاع إخراج القلم من الكوع الحديدي لماسورة الحوض .. لا تدري من أين تأتيها مشاغبات الصدف، في كل وقت وحين، لكي تجعل ذكرياتها أكثر غنًى.

وأيضًا في إحدى الليالي طلبا كوبين «جين فيز» من خدمة الغرف، وعندما أتت بهما النادلة ودقَّت باب الغرفة، لم تسمح ستسكو بدخولها للغرفة لأنها تكره أن تراها وهي في الفراش. ويذهب تسوتشيا لإحضارهما من خارج الباب. بل ولدرجة أن تخاف ستسكو أن تُرى خلسة من الباب، لا تجعل تسوتشيا يذهب إلى الباب قبل أن يطفئ أنوار الغرفة ويجعلها مظلمة تمامًا.

يتسلم تسوتشيا صينية عليها كوبان، وحتى استلامه إياها تتسلل أشعة خافتة للغاية من إضاءة الممر، ولكن بعد التسلم وإغلاق الباب، تغرق الغرفة في الظلام التام.

قالت ستسكو من فوق الفراش: «لقد تذكرت إحدى الليالي عندما انقطع التيار الكهربائي.»

– «حقًّا.»

تسوتشيا الذي كان على وشك الرد، قام بالتحسس بإحدى يديه باحثًا عن مفتاح إضاءة مصباح المكتب لإضاءته، أخطأت يده فأوقع المصباح، وانخلعت اللمبة واقعةً على الأرضية، فحدث مسٌّ كهربائي، وانطلق شعاع بنفسجي، وتوقف على الفور المذياع والمروحة اللتان كانتا متصلتين مع المصباح بنفس مخرج الكهرباء، وانسكب على الأرض «الجين فيز» وشرائح الليمون .. ولفترة من الوقت، انتهى كل شيء إلى نهاية كوميدية.

عندما يصبح الكذب ضرورة من ضروريات الحياة مرة، فكأنه مثل ماء البئر، يظل ينبع دائمًا بلا انقطاع، وفي نهاية اندهاش ستسكو من غزارة قدرتها على اختلاق الكذب التي تملِكها، ظنَّت نفسها تملك عبقرية من نوعٍ ما. اختفت الحساسية المرهفة التي كانت لها في السابق، واكتسبت ملامح صلبة تجعلها تتخطى أية أزمة عاطفية مهما كانت؛ حتى لو كان زوجها يملك ولو بصيصًا من رهافة الحس، لربما على العكس كانت ستسكو التي وقعت في الحب في خيالها، أكثر إثارة للشك، ولكانت ستسكو الحالية على العكس، لا تثير أيَّ شك. في الواقع ربما لم يكن إحساس الفضيلة الذي شعرت به ستسكو وعانت منه بهذا الشكل قبل السفر، هكذا، بل هو شعور الاستغراب الداخلي، في وقتٍ بدأ نظام حياتها اليومية يتحول. عندما يتكون نظام جديد مرة، لا تهددها الفضيلة ولا تخيفها بعد ذلك. لماذا يُفترض أنه من المستحيل أن يسير الأمر على ما يرام كما هو حاليًّا؟

أخيرًا ذهبت ستسكو إلى حضانة الأطفال التي يتردد عليها كيكو والتي لم يسبق لها الذهاب إليها من قبل، ولرغبتها أن تُرى كأم طاهرة مقدسة، خففَت من المكياج وامتنعَت عن وضع العطور وارتدَت ملابس بسيطة.

ولكن في طريق العودة، كيكو الذي كان يسير معها تجرُّه من يده، سيئ المزاج يركل الحصوات الصغيرة على جانبَي الطريق بقدمه. سألته ستسكو ماذا بك؟ قال لها كيكو إنها ظهرت اليوم بمظهر قذر عما هي عليه في المعتاد.

وعندما سألته مرة أخرى إذَن متى كان يعجبه مظهرها؟ كانت إجابة كيكو مثيرة لدهشة ستسكو. كانت ملابس أمه التي تعجبه هي التي ارتدَتها في المرة السابقة عندما ذهبَت للقاء تسوتشيا.

كانت الأمطار في هذا العام شحيحة للغاية، وهو ما يعتبر شيئًا نادرًا لفصل المطر. وفي مساء يوم حار مثل هذا أتت مكالمة هاتفية من زوجها وهو في عمله، يقول لها إن أحد اجتماعات العمل قد أُلغيت ويعرض عليها تناول العشاء معًا في أحد المطاعم بوسط المدينة، ولم يكن لدى ستسكو سببٌ للرفض.

في تلك الفترة بشكل خاص كان وجه زوجها جيدُ المزاج على الدوام يسبب لها انزعاجًا لا حدود له؛ فزوجها الذي يحافظ على ملامح عاطفية متزنة على الدوام ولم يسبق له أن أظهرَ وجهًا يعاني من الفكر أمام زوجته مطلقًا، كانت تشعر إزاءَه بقلقٍ وسدة نفس لا تُطاق. لقد رأَت ستسكو اليوم بالذات حلمًا أن زوجها قد عرَف كل شيء وواجهها بوجه محطم غارق في الوحدة والعزلة يبلغها بكل ما يعرف، ولقد أعجبتها تلك التخيُّلات.

ولكن زوجها الذي كان ينتظرها كان مرحًا بشوشًا كعادته، ثم قال بسبب الصيف الذي جاء بالفعل، إنه يجب اصطحاب كيكو للمصيف. كانت الأسرة تملك منزلًا صيفيًّا في أحد المصايف ورِثه زوجها عن أبيه.

كانت ستسكو متأهبةً لحدوث ذلك، فحتى لو كان فراقًا مؤقتًا فقد كان عليها العيش بعيدًا عن تسوتشيا تفصلهما الجغرافيا .. سيجِب عليها الانتظار في تلك الأرض المجاورة للبحر، تستقبل زوجها عندما يأتي للمبيت في نهاية كل أسبوع، وعندما تفكر أن ذلك التزام عليها لا مفرَّ من أدائه، لا تستطيع ستسكو الاعتراض بقوة، ولكن من المؤكد أنها عندما تقابل تسوتشيا في المرة القادمة ستبالغ من هذا الفراق المؤقت بشكل دراماتيكي.

تناوَل الزوجان الطعام في مكان مزوَّد بمكيف للهواء؛ ولذلك كان ذلك الهواء المنعش الصناعي يتناسب تمامًا مع حالة الخواء العاطفي لها، وقد نسيَت ستسكو كلَّ الهراء الذي تلفظَت به وكأنه كان مجرد تقليد لحركة شفاه شخصٍ ما آخر غريب عنها. أكل زوجها بشراهة، ولم تغفر ستسكو لزوجها حتى شهيته المفتوحة. ما هذه الشهية المفتوحة بلا مبالاة رغم ما يحدث لها من أهوال؟

بعد انتهاء الطعام، أثناء التنزُّه توقفت عيونهما صدفة على لوحة إعلان عن فندق مرفوعة في الطريق. كان ذلك الفندق قد ذهبت إليه ستسكو مرة من قبل.

«فنادق طوكيو ليس لها معنًى بالنسبة لشخص يسكن في طوكيو بالفعل.»

إنه أمر يبعث على الريبة أن يقول زوجها ذلك القول الطفولي.

قالت ستسكو: «حسنًا، ولكن أليس ذلك فندقًا للعشاق؟»

– «حقًّا، كيف عرفتِ ذلك؟»

– «هذا واضح من مجرد رؤية الإعلان.»
بعد السير خمسة أو ستَّ خطوات قالت ستسكو: «ألم تقل لي إن لي حرية الخيانة؟»
حاولت بكل ما لديها من قدرة أن تتصنع الطيش والاستهتار.
– «حسنًا، أعتقد أنه أمرٌ لا يمكنني قول أي شيء حياله.»
كان ردًّا وقورًا هادئًا وسلسًا للغاية؛ مما جعل قلب ستسكو يتجمد.

كان اللقاء الأخير قبل الذهاب إلى المصيف، بالنسبة لستسكو، فرصةً لنوع من أنواع القصص التي من تأليفها وتمثيلها. بذلَت جهدًا كبيرًا في أن تجعل الرجل يمثِّل بمهارة آلام الفراق، ولكن تسوتشيا كان رديئًا جدًّا في تمثيله. ليس هذا فقط، بل إنه قال كلامًا مثل: إذا مرَّت عشرة أيام فمن المؤكد أنك ستشتاقين إلى طوكيو وتعودين إليها.

أحست ستسكو بألم دقيق يجرح كبرياءها. لقد شعرت الليلة لأول مرة بضرورة الأنانية في عواطفها. الأنانية بمعنى أنه يجب عليها ألا تحب تسوتشيا بشكل أكبر من حبه لها. لم يسبق لستسكو أن شعرت بضرورة هذا التحكم في ضبط مشاعرها من قبل، ولكنها الليلة أحسَّت بالحنق أن تسوتشيا لا يحاول الارتفاع بمشاعره إلى ذلك المستوى الذي تعتقد هي أنه المستوى المناسب والطبيعي. هذه الليلة بالذات كانت تنتظر من تسوتشيا إظهار «آلام الفراق» إلى حدٍّ ما، ومع اعتقادها أن ذلك حقها الطبيعي؛ إلا أنها بسبب حرصها على عدم جرح عزة نفسها، فكرَت بمبالغةٍ أن كلَّ «آلام فراقها» تلك، ما هي إلا تمثيل في تمثيل. بل إن التمثيل كان سهلًا إلى حدٍّ بعيدٍ من العواطف الطبيعية! تمثيلها لآلام الفراق تلك، كان هينًا ومريحًا لدرجة كبيرة.

ذهبا إلى فندق يذهبان إليه للمرة الأولى، وأخذا غرفة تُطل على عريشة عنب في الحديقة الداخلية، وتُطل على أنوار مدينة طوكيو في الليل. عندما فكرت ستسكو أنها ستودع تلك الأنوار لفترة، أحست بأنها أنوار رائعة الجمال. كانت أنابيب المياه في الفندق تصدر أصواتًا غريبة، وكان الحر نفسه حتى مع فتح النوافذ. كانت عادة ستسكو الدائمة قبل الدخول إلى الفراش، هي الإدلاء بالوعظ والنصائح. عند توبيخها المتعدد لتسوتشيا بسبب بلادة حسِّه العاطفي، استخدمَت كلمة «الوداع» بكثرة لكي تعوِّد نفسها على تلك الكلمة التي ستكون ضرورية في وقتٍ ما، وفي نفس الوقت لكي تجعل تسوتشيا يُحس بالقلق ولو قليلًا، ولكن وكما كان تسوتشيا يفعل دائمًا عندما يصبح الأمر معقدًا، أغلق شفتيها اللتين تتكلمان بتلك الكلمات بشفتيه.

في تلك اللحظة، واجهت بشكل مباشر نزقها الأبدي الصعب العلاج، الذي يتخفى داخل الرغبة الجنسية. ذلك النزق الذي تجعله يبتلع تمامًا مشاكل الواقع الكثيرة والمعقدة

والجادة والخطيرة كذلك، واحدة بعد الأخرى دون أن يترك منها شيئًا .. حاولت ستسكو صده، ولكن لم يأتِ ذلك بنتيجة، ثم قاومت هذا الكم الكبير من الاهتمام، والتعقيدات والتورُّع، وأسلمت جسدها إلى غنى ذلك العالم الذي تغرق فيه الآن.

ونتيجة لذلك قامت ستسكو بدون رغبة أو وعي منها بتلك المقارنة لأول مرة، والتي اعتقدت حتى الآن أنه لا يجب القيام بها. لقد أعطاها تسوتشيا بشكل مؤكد الشيء الذي لم تنَله من زوجها.

كان الاثنان قد تعريا بشكل طبيعي وتلقائي. كان عُريًا لا يوجد به أي نوع من المبالغة ولا أي نوع من التباهي. من النافذة التي تُركت مفتوحة لكراهية استخدام المروحة الكهربائية، مع هواء الليل الممتع، يُسمع من بعيد صدى القطار الكهربائي، وأبواق السيارات، ويختلط بذلك أمواج لصوت تشجيع رياضي. وقف تسوتشيا بجوار النافذة، ونظر أسفلها وهو ينفث دخان السجائر. وقفت ستسكو بجواره بعد أن لفَّت جسدها العاري بستارة النافذة.

أصوات التشجيع الرياضي كانت لبطولة مصارعة السومو تقام في فناء مدرسة ابتدائية، تقع أسفل درجة من حديقة الفندق. رسمت الإنارة دائرة من الضوء حول حلبة اللعب فقط، ويظهر على البعد هيئة صغيرة الحجم لشخصين يتصارعان مثل جَروين. ثم انهارت تلك الهيئة وسقطت في الظلام. حسنًا بهذا يكون أحدهما قد فاز بالمباراة، ولكن لا يمكن رؤية ملامحهما، ولم يُعرف من الذي فاز منهما.

«أنت حقًّا لا يوجد لديك ما تقلق عليه. يجب عليَّ أنا وحدي أن أحمل الهم والقلق وأظل أرتعد خوفًا وقلقًا. أليس كذلك؟»

قال تسوتشيا: «يجب التخلص من مثل هذه الأشياء تمامًا.»

ثم أضاف قائلًا: «هل يوجد لدى السيد زوجك أي قلق؟»

– «بالطبع لا يوجد بتاتًا. حقًّا لا يوجد ولا قلق واحد.»

ضحك تسوتشيا من أعماق قلبه ضحكًا باستمتاع مُبديًا أسنانه البيضاء. وأكملَت ستسكو كلامها: «ولكن انعدام القلق عند كوراقوشي، وعدم وجود قلق لديك أمران مختلفان تمام الاختلاف؛ فأنت تشعر بكل شيء وتعرف بكل شيء، ورغم ذلك لا يوجد لديك أي قلق بتاتًا.»

– «أراكِ تبالغين جدًّا في تقديري.»

تعلَّق دخان سجائر تسوتشيا حول جسده العاري، بسبب توقف نسيم الليل. كان تسوتشيا عبارة عن جسد، كتلة من الجسد النزق، أو إنه إنسان يحتاج أن يتظاهر ولو غصبًا، أنه رجل لديه فقط ثقة بالنفس.

«العلاقة بيني وبينك هي ...»

بدأت ستسكو الكلام ثم سكتت. لم يسألها تسوتشيا عن باقي الجملة. عندها ترسبت الجمل في قاع قلبها.

وعند هذه اللحظة تأكد شعور ستسكو أنه لا يوجد بينها وبين تسوتشيا ما يعكِّر صفوهما. لا يوجد ما يحول بينهما، ولكن كان ذلك الشيء الذي يحول بينهما ولا شيء غيره، هو أشد ما تشتاق إليه ستسكو وتنتظره بفارغ صبر. وكانت تشعر أن من سيأتي لإنقاذها هو الشيء الذي يحول بينهما ولا شيء غيره، ولكن ذلك الشيء ليس له وجود.

بدأت ستسكو الكلام مرة ولكنها قالت شيئًا مختلفًا تمامًا: «أنا حرة أكثر بكثير مما تعتقد أنت.»

الفصل الثاني عشر

في الحقيقة إن ستسكو كانت تخشى من احتمال أن يتردد تسوتشيا كثيرًا عليها بعد أصبحت بعيدة عن زوجها، وأن تملأ الفضائح الكثيرة مجتمع المصيف الضيق، ولكن لأن تسوتشيا في الأصل شخص «ذو أخلاق» فلم يُقدِم على فعل ذلك، وكانت خُطته هي انتظار عودة ستسكو عرَضًا إلى طوكيو. عندما توبخه ستسكو على ذلك الخلق الرفيع، يتحول تسوتشيا على الفور إلى طبيب نفسي، ويبدأ في مدح لطفه وحنانه معها بأنه من خلال الصبر والتحمُّل يحاول إنقاذها من غباء نقص الحماس بسبب اللقاءات الزائدة عن اللازم.

ولأن ستسكو كانت تحب البحر وأشعة الشمس والرياح، وكل عناصر الطبيعة التي تدعو إلى الشهوانية؛ فقد كانت ترى في كلمات مثل الصبر والتحمل واللطف والحنان، كلمات مصطنعة يجب الخوف منها. ستسكو الصريحة في إخلاصها كانت تحتقر مثلًا المهارة المصطنعة التي تحاول زيادة المتعة.

في تلك الأرض التي لا يوجد فيها تسوتشيا الآن، أصبحت ستسكو، في مواجهة أمواج ورياح البحر، امرأة تعشق بصدق، ويجب القول إن هذا تغيُّر طفيف، ولكنها شعرت أن تسوتشيا لو كان معها، لتحطمت طبيعة حبها الخالصة.

اقترب أول لقاء بينهما بعد رحيلها عن طوكيو. لقد اعتبرت أن ذلك اليوم يوم جديد بدرجة مختلفة تمامًا؛ فيجب منذ ذلك اليوم خاصة أن يبدأ ما تتمناه من حماس حقيقي، وحب حقيقي، وأفعال جنونية حقيقية. كان قلبها من على السطح قد نسي تمامًا أي ملل، ولكن لم تتحرر أبدًا من الحذر تجاه ذلك. كانت تحلم بحائط صدٍّ حديدي لا يجعل أي نوع من الملل يقترب منها، ولكن نتيجة ذلك، ربما كان الأصح القول إن ستسكو كانت تتمنى حالة جمود عاطفي، أكثر من تمنيها تحرُّك تيار العاطفة والحماس كما يحلو لها، ولكن هل هذا أمر يمكن تحققه؟

ولم تكن ستسكو تعلم بوجود أدوية مفيدة تنتشر حاليًّا لتبكير أو لتأخير فترة الحيض حسب الحاجة؛ لأنها لم تكن في حاجة إلى ذلك من قبل. حتى لو علِمت بها فربما كانت ستكره تلك الأدوية الصناعية. في الواقع إن أول مرة تشعر فيها ستسكو بالاحتقار تجاه زوجها كانت بسبب اهتمامه الزائد عن الحدِّ بوسائل منع الحمل الصناعية، ويُعتقد أن تسوتشيا اكتسب ثقة غير عادية لدى ستسكو بسبب لا مبالاته بهذا الأمر.

كما ذكرتُ من قبلُ كانت فترة الحيض لدى ستسكو تتأخر في الغالب عن موعدها. كانت ستسكو تَرى في حيرة وتردد تلك الفترة غير المنتظمة، مثل عدم انتظام الجو بتبادل يوم مشمس مع يوم غائم، قدَرًا صغيرًا حنونًا يخصُّها هي وحدها ولا يتطفل عليها. تتنبأ بحدوثها بدون حساب الأيام، مثل التنبؤ بحالة الجو في يوم ترغب أن يكون جيد الطقس. فترة طمث ذلك الشهر بدأت متأخرة كما هو المتوقع، وكانت طبيعة ستسكو أنها عندما تبدأ تستمر طويلًا، ولا يبدو لها أنها ستنتهي على الرغم من أن موعد لقائهما هو الغد.

مكان اللقاء هو فندق ساحلي صغير يقع تمامًا في منتصف المسافة بين المكان، الذي توجد فيه ستسكو الآن، وطوكيو. فيما مضى كانت تتمنى المبيت به ولو مرة واحدة، ولكن لم تكن هناك فرصة لذلك فلم تتحقق أمنيتها تلك.

عندما ذهبت ستسكو في ذلك اليوم، وجدت تسوتشيا ينتظر بلباس البحر على الشاطئ المزدحم الممتد كجزء من حديقة الفندق. كان نائمًا وتنصبُّ عليه أشعة الشمس الحارقة، يلتصق بخديه الكثير من الرمال مثل قتلى المعارك الحربية.

شاهدت ستسكو ذلك من أعلى واندهشت من الاختلاف الكبير بين الفراغ الذي يشغله جسده، وفراغ الحب الذي تمدد أثناء غيابه عنها. لقد رأت أن العالم يصير ظالمًا للغاية من خلال درجة احتياج إنسان إلى إنسان آخر. في الواقع، خلال الأيام الماضية، كانت ستسكو تعاني من الشهوة الجسدية، ولكن عندما رأت تسوتشيا نائمًا أمام عينيها بهذا الشكل، تأكدت أن حبها ليس حبًّا جسديًّا شهوانيًّا فقط، ثم يبدأ عندها عدم الخجل من هذا التأكد ولا غيره.

فتح تسوتشيا عينيه .. ضحك وهو يحتمي من أشعة الشمس ولكن بهدوء، وتلك هي التحية الدائمة للقائهما.

وعندما رأى ستسكو التي كانت قد بدلت ملابسها بالفعل للباس البحر، عرض عليها السباحة في البحر معًا. رفضت ستسكو. عرَض عليها ثانية. رفضت مرة أخرى. وأخيرًا أصبح لازمًا عليها أن تقول في وضوح إنها اليوم لا تستطيع أن تدخل الماء. عندما سمع

تسوتشيا ذلك تغيَّر وجهه، وستسكو هي الأخرى بدلًا من الاندهاش من حسن فطنته، تعجبت قليلًا من أنانية ملامحه تلك.

في تلك الليلة باتت ستسكو في الفندق مع تسوتشيا. في المساء قاما بنزهة طويلة، وتبللت أرجلهما من أطراف الأمواج التي تقترب متسحِّبة نحو الشاطئ. وبعد العودة لغرفة الفندق استمعا إلى المذياع، وتناولا ببطءٍ خمرَ ما بعد العشاء. رغم أن تسوتشيا دائمًا ما يكون متعجلًا؛ إلا أنه هذه الليلة كانت ستسكو هي التي تسيطر على الوقت.

وبهذا الشكل وانتهازًا لفرصة من النادر أن تحدث، وصل تفكير ستسكو إلى أن تجرب قوة مشاعر حب تسوتشيا الروحية فقط. قالت كلمتين أو ثلاث كلمات اعتذارًا عن وجود عائق في تلك الليلة؛ ولكن عندما ترى ملامح الملل والضيق على تسوتشيا، يبعد الهدوء عن قلبها، وكانت كلمة «هل جسدي هو كل ما تحب؟» على وشك الانفلات من فمها، ولكنها لو لفظت تلك الكلمة فستكون النهاية. تكره ستسكو مجرد تخيل تسوتشيا وهو يتصنع الحب أمامها استجابة لكلمتها تلك، وكذلك تكره ستسكو رؤية ملامح تسوتشيا الهادئة اليائسة.

تعلو أصوات الأمواج، مع تأخر الليل، ولأن اتجاه الرياح مختلف؛ فلذا لا تأتي نسائم الهواء من سلك النافذة التي تُركت مفتوحة خصوصًا لذلك. وعندما تنظر إلى تسوتشيا الذي ينفث دخان سيجارته في سكينة وهدوء، يتولد لديها قلق مفاده أن عائق الليلة لم يكن بالنسبة له شيئًا ذا بال، وأن قلقه وضجره اليوم ليس ناتجًا من تأدبه.

كان من المفترض أن يناما كلاهما معًا في سلام كما الأطفال، ولكن بعد أن أطفأ النور، كانت ستسكو تسمع تنفُّس الشاب الذي يحتضنها مختلطًا بالمعاناة، ولكن تلك المعاناة جعلتها تفرح من ناحية، ومن ناحية أخرى جعلتها تشعر بالرثاء لنفسها. شعرت ستسكو أن تسوتشيا كما لو كان إنسانًا حياته في خطر إذا لم تعتنِ هي به الآن.

فجأة قامت ستسكو بأفعال هوجاء، ثم قامت بعمل مداعبة كان زوجها في الماضي قد أجبرها على فعلها ولكنها رفضت بكل عناد أن تفعلها له، وها هي الآن تفعلها لتسوتشيا الذي لم يطلبها منها قط. قامت بمسح وإزالة كل الأوهام الخيالية البائسة التي قد رسمتها بنفسها في الماضي لذلك الفعل، وأصبح أي شيء وكل شيء في داخل تيار ذلك العشق طاهرًا بريئًا.

هل هذه هي العاطفة الجياشة الحقيقية؟ أم هي يا ترى حالة من الجنون؟ ما هو المقياس الذي يجعلنا نقول ذلك؟ لم يكن لدى ستسكو التي لا تقرأ الروايات أي قدرة

على الوصول إلى المقياس الحقيقي كأحد المشاعر غير الحقيقية لها، رغم أنها حاليًّا غارقة وممتلئة بالشهوانية بلا أي نقصان؛ إلا أنها كانت بعيدة جدًّا عن وصفها بحالة الجنون، وما كان هناك لا يزيد عن مجرد وجود تدفق للفرحة الطبيعية فقط، وحتى بالنسبة لتلك الفرحة، كانت ستسكو وحيدة أكثر مما هي عليه دائمًا.

في الصباح كان عائق ستسكو قد انتهى؛ ولذا استطاعت أن تسلم جسدها بدون أي نوع من التفكير. بعد الانتهاء من فعل ذلك، كان يلتصق بجسد تسوتشيا بقايا قليلة جدًّا من آثار دماء. تخيلت ستسكو أن تلك الدماء نتجت عن جرح جرحها إياه تسوتشيا. دماء طائر صغير لطيف .. وكأنها دماء نزفتها طويلًا من أجل تسوتشيا.

تقابل الاثنان خلال الصيف عدة مرات في نفس الفندق، وأخيرًا وعندما جاء الخريف عادت ستسكو مع كيكو إلى طوكيو. الخريف الذي يأتي جعل قلبها يسترجع مجمل تاريخ تجربتها في الحب الجسدي خلال ما يقرب من ستة أشهر. مطابقًا مع ملامح وجه تسوتشيا في كل لقاء من لقاءاتهما. تم وكأنها صورة تم تحميضها مرة إضافية أخرى من نفس النيجاتيف الأصلي، لا يوجد بها أي اختلاف ولو قليل.

تعتقد ستسكو أن تسوتشيا كأنه وحش من وحوش العاطفة. ذلك الثبات وذلك الهدوء، وهذا التعامل الذي لا يتغير بتاتًا ليس أمرًا هينًا، وحتى لو التصقت به إلا أن ستسكو التي تغرق خطوة بعد خطوة في الأعماق تدريجيًّا تبعد عن تسوتشيا، أو بالأحرى عن تسوتشيا الواقع، وأصبحت تسكن في منطقة خيالية رسمتها هي بمفردها، ولكن ذلك الخيال، كان يختلف تمامًا عن الخيال الذي كان قبل أن تتعرف على الجسد. كانت ستسكو على الفور ترى أحلامًا وهي تضع تسوتشيا أمام أعينها، أو أثناء ما تلمس جسد تسوتشيا، ثم وأثناء عدم وجوده معها، تتلمس صدى صوته وعبق رائحته. الرجل يصبح ممرضًا ذا خبرة، ويعامِل المرأة وكأنه يتعامل مع مريض بمرض اللعب بالأحلام، ذلك المريض يوجد أمامه ويرى أحلامًا واضحة حوله، بل ويحاول أن يبدي أي قلق تجاهه وينظر إليه مباشرة. ومن أجل ألَّا يستيقظ المريض، يسير الرجل حول المرأة دائمًا بخطوات مكتومة الصوت وأسلوب حديث رقيق وحنون، وحركات هادئة رزينة.

ورغم قول ذلك؛ فإن ذكريات هذا الصيف جعلت قلب ستسكو ينمو في جمال. غروب البحر، السحاب المصبوغ بألوان رائعة، اليخوت التي تطفو متباعدة، الزوجان الأجنبيان المنعزلان اللذان كانا طوال اليوم جالسين في غرفة «التراس» بالفندق، حالة الجلوس على صخرة مستوية بلون الطمي البُني على حافة لسان البحر، وتأتي الأمواج فتنزلق على سطح

الصخرة، وفي الحال تنسحب خارجة من الكهف الصغير الذي يوجد أسفل قدمها، وهي مندفعة تُصدر صوتًا بالغ الضخامة.

كانت ستسكو أثناء رسمها للوحة المناظر الطبيعية ترسم كذلك الرغبة الجسدية. كانت نفس أدوات الرسم كافية لذلك، ثم كانت رائحة جسد تسوتشيا تفور وتملأ رياح البحر التي تهبُّ بكل تلك المناظر.

بماذا يمكن يا ترى تشبيه ذاكرة الجسد التي تراكمت داخل ستسكو؟ على أي حال فقد كان الأمر بالنسبة لها شخصيًّا تجربتها الأولى، ولا يوجد شيء آخر يمكن أن تقارنه به. أُضيف إلى شهوانية ستسكو، شرطٌ أنه يجب أن يكون الطرف الآخر هو تسوتشيا ولا أحد غيره. ولكن، وهو الأمر الطبيعي، كلما أحب تسوتشيا بطريقة أنه يجب أن يكون تسوتشيا فقط، زاد ثقل الدور الذي يجب أن يقوم به كرجل ذي صفات شاملة، وأصبح أكثر وأكثر رجلًا عامًّا بلا اسم محدد. عندما تفكر ستسكو في «يجب أن يكون تسوتشيا فقط»، ما هي الفكرة الصحيحة التي تُظهر ذلك؟ كان هذا مجهولًا تمامًا. لم تستطع ستسكو أن تحب فيه فقط النقاط التي يختلف فيها كرجل عن باقي الرجال، وعلى العكس إمكانية حب الصفات الشخصية المميزة هي خاصية تنفرد بها عاطفة الصداقة.

استخدمت ستسكو اسم تسوتشيا بكثرة شديدة وسط مشاعر النشوة العميقة، على الأرجح، وسط تلك المشاعر التي أصبحت لا تناسب أية حركة طبيعية للقلب في الحياة العادية، اعتادت ستسكو أن تطلق على تلك المشاعر ذاتها اسم تسوتشيا، وهكذا غيَّرت اسمه إلى اسم أكثر سرية، ولا تستطيع أن تسمي هذه المشاعر باسم آخر مختلف، فعندما تعتقد حقًّا بأنه: «لا يوجد إلا تسوتشيا فقط! ...»

في هذه الأثناء عندما تصبح هي وتسوتشيا بمفردهما في الغرفة ومع إحكام غلق الباب، ومع صوت غلق مزلاج الباب، تستيقظ على الفور غرائزها الشهوانية، وتُخفي هي ذلك بسبب الخجل، وتتعمد طلب وقت أطول من المداعبة، ولكن ينتبه تسوتشيا إلى ذلك فورًا، وأصبح لا يستغرق وقتًا غير ضروري. لقد أحبَّت ستسكو حتى ملابس تسوتشيا الداخلية. مجرد لمس كتفه العاري الشاب تشعر وكأنها لمست نيرانًا. كان جسده يعيش فقط من أجل إسعادها.

الفصل الثالث عشر

في يوم من أيام الخريف، اتفقت ستسكو مع تسوتشيا على اللقاء في المحل الذي يتواعدان فيه دائمًا. أتى تسوتشيا، وبعدها بقليل أتى اتصال هاتفي من يوشيكو، فذهبت ستسكو إلى مكان الهاتف بجوار الكاونتر المزدحم بسبب دخول وخروج أناس كثيرين. كانت يوشيكو فقط هي التي باحت لها بمكان لقاءاتها مع تسوتشيا.

لم يكن اتصال يوشيكو لشيء عاجل، ولكنها من حين لآخر تغبط ستسكو على غرامها الهادئ، وتعاني من معالجة عشيقها الذي يتصرف مؤخرًا بجنون بسبب تعاملها ببرود معه. قالت يوشيكو إنها تريد من ستسكو أن تستمع لها وتعطيها نصيحة بهذا الخصوص في القريب العاجل.

بعد أن أنهت تلك المكالمة الهاتفية وعادت إلى مقعدها، كان وجه تسوتشيا الذي رأته ستسكو معاكسًا تمامًا لحديث الهاتف الرائع. مهما نظرت إليه رأسيًّا أو نظرت إليه أفقيًّا لا يوجد في وجه هذا الشاب أي ملمحٍ للجنون.

عند تناول وجبة العشاء في تلك الليلة نظرت ستسكو للرجل الذي جاء وجلس على الطاولة المجاورة لهما وظهراهما متقابلان. عندما نظرت خلسة وجدت أنه زميل لزوجها في العمل. رغم أنهما لم يطلبا الطعام بعدُ إلا إن ستسكو همست في أذن تسوتشيا أنها تنتظره عند غرفة حفظ المعاطف، وثنت جسدها خارجة من ذلك المكان، ثم بعد ذلك اقترحت على تسوتشيا الذي جاء في إثرها تغيير المطعم.

ظهر الشك والارتياب على وجه تسوتشيا. على الأرجح كان هلع وذعر ستسكو قد خرج عن حدود المألوف. ما هو العار لامرأة متزوجة في مجرد رؤيتها تتناول الطعام فقط مع رجل آخر.

كان تسوتشيا يقول ذلك من حين لآخر وهو يضحك، ولكن ملامح ستسكو كانت صلبة ومتزمتة. بعد أن هربت من المكان حتى ستسكو نفسها انتبهت إلى عدم وجود سبب لذلك الذعر. عند مقارنة ذلك بالصدمة الهائلة التي حدثت لها في الفندق في أول رحلة لهما والتي كانت لها سببها، لم يكن كل ما حدث الآن يزيد عن مجرد محاكاة بلهاء لها.

ما الذي كانت ستسكو تحاول محاكاته يا تُرى؟ هل هو اقتفاء أثر تلك الصدمة التي حدثت في الفندق ومحاولة إعادة تمثيلها مرة أخرى، وبالتالي تستمتع ثانية بتلك البراءة المليئة بالخطورة؟ عندما شاهدت زميل زوجها في العمل، أمسكت بفرصة عمل تلك المحاكاة وانتظرت آملة أن يظهر تسوتشيا خوفًا وقلقًا من وجودها معه، ولكن تسوتشيا كعادته كان يضحك. حتى أثناء السير باتجاه مطعم آخر، كان ينظر من وقت لآخر إلى وجه ستسكو ويضحك.

شعرت ستسكو بأن تلك الضحكات قاسية، ولكن الشيء الوحيد المؤكد هو أنها أصبحت في حاجة إلى تسوتشيا الآن بدرجة أعلى بكثير مما كانت عليه وقتها في ذلك الفندق.

بدأت ستسكو في ذلك المساء وفي غرفة الفندق المعتادة، اعترافًا غير متوقع بنبرة كلام وعظية وكأنها تتلو صلوات ما قبل تناول الطعام. اعترفت بالسر الذي كانت قد قررت عدم البوح به أبدًا لا لزوجها ولا لتسوتشيا بخصوص الطفل الذي أسقطته قبل الرحلة. سمع تسوتشيا ذلك بوجه مستسلم تمام الاستسلام.

كان ذلك الاعتراف له إيقاع درامي مأساوي، وزادت أصوات الحشرات القريبة من النافذة من قوة ذلك الإيقاع؛ ولكن تسوتشيا عديم اللباقة في الحديث انحصرت محاولته فقط في التخفيف عنها بأنه ظل يقبلها محاولًا إغلاق فمها، وكذلك كانت ستسكو تستجيب لذلك في كل مرة بشفتين منهمكتين كل الانهماك؛ لذا كانت حكايتها الطويلة تتوقف من وقت لآخر.

لم تكن ستسكو تملك في قلبها عددًا كافيًا من الأدراج لكي تحتفظ فيها بأسرارها عند ميلاد سرٍّ جديد، لم تكن تستطيع تخزين السر القديم. أحد الأسرار الجديدة ... كانت ستسكو تُخفي عن تسوتشيا قلقها من أنها مهما انتظرت طمث هذا الشهر فهو لا يأتي.

بعد مرور أسبوع لم يعُد قلق ستسكو هينًا. تصنعت الخروج للتبضع، وظلت تهيم على وجهها وحيدة في طُرقات المدينة. عندها شاهدت ستسكو من الجهة المقابلة شخصًا غريبًا يسير نحوها. فرغم أن أشعة الشمس كانت لينة إلا أنه يرتدي قبعة عميقة من اللباد ويضع كمامة على وجهه. عندما مرَّ من جانبها بلا وعي اختلست ستسكو النظر إلى ظل

رفرف القبعة. كان المكان الذي يفترض أن توجد أنف ذلك الرجل كان غائرًا في سواد، والعين منبعجة بشكل مشوَّه، وبلا حواجب.

مرَّ الرجل بجانبها في لحظة زمن خاطفة، ولكن ترك ذلك الوجه العجيب انطباعًا عميقًا لدى ستسكو. مشَت مسرعة في محاولة لإزالة هذا الانطباع. كلما سارت برز ذلك الوجه المريع واضحًا زاهيًا بين جنبات طرق المدينة في وضح النهار.

تذكرت ستسكو في أثناء ذلك قصة حقيقية حدثت في بريطانيا سمعتها من شخصٍ ما أن إحدى النساء البريطانيات كانت تقرأ أثناء حملها حكاية أثارت اهتمامها، وكانت تظهر فيها شخصية رجل لديه أصبع زائد، وغالبًا ما يطفو على خيالها ذلك الرجل، وعندما ولدت وجدت أن أحد يدَي طفلها الوليد به ستة أصابع. هذه الذاكرة جعلت ستسكو ترتعد رعبًا.

استقلت ستسكو سيارة أجرة، وتذكرت عندما كانت عائدة من منزل إحدى صديقاتها، وقد أشارت تلك الصديقة التي جاءت لتوصيل ستسكو إلى منزلها إلى عيادة تحت المنحدر قائلة لها لو حدث شيء طارئ فطبيبة تلك العيادة في غاية الرقة وتشخيصها للمرض في غاية الصحة والتأكد، فجعلت السيارة تتوجه إلى تلك العيادة. السبب أنها قد كرهت الذهاب إلى طبيبها المعتاد.

وجدت العيادة جميلة ونظيفة بما يتناسب مع كون المالك طبيبة، وراقها كثيرًا طريقة تعامل مكتب الاستقبال لها، وعلى الأرجح لأن مظهر ستسكو الخارجي كان في غاية الرقي فقد قامت المالكة بنفسها بفحصها. قالت مالكة العيادة: الحمل مؤكد بنسبة تسعين في المائة، ولكن لنجرب حقنة تنشيط الحيض، وإذا مرت سبعة أيام ولم يحدث حيض، أرجو أن تأتي مرة ثانية إلى هنا. فأخذت ستسكو الحقنة.

منذ ذلك اليوم كأن ستسكو تنتظر شيئًا. لم يكن الحيض الذي عاشت معه حتى الآن هو ما تنتظره؛ فلقد أحست أنها قد أُهملت من قوى القمر التي تسيطر على المد والجزر. كان ما تنتظره هو أحد العوائق القادمة التي ستفصل بوضوح بينها وبين تسوتشيا؛ أي الشيء الذي ينقصهما وهما الأكثر احتياجًا إليه. الشيء الذي لا يمكن وصفه بالطفل وهو لم يأخذ بعدُ شكل الأطفال.

مرت خمسة أيام، ثم مرت ستة أيام، وأخيرًا أصبحت الأزمة محققة. تغير مذاق الطعام، وترغب فجأة في تناول ثمار في غير موسمها، وفي منتصف الليل ترغب في تناول بطاطس مقلية فرنسية. خافت ستسكو بشكل حادٍّ أن يلاحظ زوجها هذه المرة تلك التغيُّرات.

وكذلك تقوى لديها رغبة الإجهاض دون إبلاغ تسوتشيا، ولكنها تغير رأيها على الفور، وتصل إلى الرغبة في التحدث بشكلٍ كافٍ تمامًا مع تسوتشيا وأن تترك له الأمر يقرره بإرادته، ولكن ستسكو التي أُحسِن تربيتها ظلت تفكر بإمعان، وتتخيل أن إبلاغ تسوتشيا ذلك ليس فقط سيبدو وكأنه شكل من أشكال التهديد، أو من أشكال طلب شيء معين، ولكن أيضًا تتخيل إلى أي درجة ستُصاب بمشاعر الحسرة لو أن تسوتشيا بنفسه هو الذي عرض عليها الإجهاض. يجب قبل إبلاغ تسوتشيا أن تكون هي قد قررت قرارها وجعله يطيعها في ذلك، وبالطبع يجب أن يكون قرارها ذلك قرار الإجهاض. عندما تصل إلى هذا الحد من التفكير، فجأة يصبح قلب ستسكو يغلي بخيالات متعددة وأفكار عميقة كثيرة متعلقة بالطفل الذي بينها وبين تسوتشيا.

أيًّا كان القدَر الذي سيتقرر، كانت روح ستسكو تحلِّق عاليًا على نحو مفاجئ، وكأنها قد أصبحت ترى بوضوح، على طريقة المنظور الهندسي، الوشيجة التي تربط بينها وتسوتشيا وبين هذا الطفل. يمكن القول إن روح ستسكو حصلت على المنظور، ثم حَوتها مشاعر اعتزاز أنها تستطيع الوقوف في موقف أعلى كثيرًا من الحبيب لكونها تعاني معاناتها كأم، مع الضغط عليها وحصارها تحصل بهذا الشكل على نوع ما من أنواع الحرية، وتعتقد أن تسوتشيا لا يحمل علاقة بها إلا من خلال الشهوة.

أحسَّت ستسكو بمشاعر استشهاد طاهرة، وبسعادة تملؤها المعاناة في تخلِّيها عن وظيفة «أم طفل تسوتشيا» من أجل تسوتشيا نفسه، وهذه تضحية ذاتية تتخطى دور الحبيب، إنها تضحية لا يستطيع تسوتشيا دفع مثلها حتى ولو ظل واقفًا على يديه ورِجلاه لأعلى، وأحسَّت ستسكو أنها تفوَّقت على تسوتشيا درجة بقدر ضخامة وألم تلك التضحية التي تبدو وكأنها تملقٌ للقلب.

ومع احتضانها لتلك الأفكار النبيلة، من ناحية أخرى، يجب التأكيد على ذكر إحساسها هذه المرة، داخل نظرة أخلاقية لم يتم تجربة تحليلها بشكل كامل، أن إجهاض «طفل خطيئة» — بشكل واضح ولا لبس فيه — هو شيء خيِّر. إنها تشعر بشكلٍ ما أنه عمل صالح رغم وجود حيرة مؤلمة. ومع التردد والتشوش في أفكارها، لم تخطئ ستسكو هدفها. وأخيرًا عندما قررت تنفيذ ذلك القرار المصيري، غرقت لحظيًّا في راحة نفسية ليس بها أي شعور بالذنب.

بعد حصولها على تلك الراحة النفسية، لم يعُد تذكُّرها وجه ذلك الرجل المرعب الذي رأته في طرقات المدينة، مصدرًا للكآبة أو الحزن؛ فقد دُفن الطفل الذي بلا أنف ولا حواجب وانتهى أمره. أليس ذلك بحق أعظم خير تستطيع أمٌّ تقديمه لطفلها كإنسان؟

كانت ستسكو بالفعل تؤمن بصلابة أنها إذا ولدته، فبالتأكيد سيولد طفلًا بلا أنف ولا حواجب. قلَبت ستسكو الأفكار الرومانسية على ظهرها، ورأت في ذلك انتقام الفضيلة التي قامت ستسكو بخيانتها، وتحاول التخلص منه إلى الأبد.

لقد آمنت ستسكو بنفسها وهي تحاول حل العلاقة الأرضية والسيطرة عليها وهي تنظر إليها من علٍ، وهي فوق الأرض تحت الأشعة الشفافة هناك، في علو سماء الخريف. على أي حال، لا ريب أن تسوتشيا فيما يتعلق بهذه المشكلة لا يحمل إلا أفكارًا جبانة بها قليل من القذارة تدعو للرثاء. ولكن من موقفها بإهمال ما في قلب الحبيب من قبح ومحاولتها النظر إلى حسناته فقط، ينبغي القول إن التربية التي تلقتها ستسكو في حياتها حتى الآن كانت صحيحة.

فجأة أحست ستسكو بطيف كيكو خلفها. نظرت ستسكو للخلف وعندها اكتشفت طفلًا يتبقى على بشرته سواد حرقة الشمس وقد كبر في فترة الستة أشهر السابقة لدرجة أنه أصبح لا يُعرف، وفكرت: «انتهى الأمر. لا أستطيع تقبيل طفل في مثل هذا الكبر.» الآن ما ترغب فيه من كيكو شيء آخر. لا تريد منه إلا أن يكبر بأسرع ما يمكن، وأن ينتقد أمه بطريقة نبيلة وفخمة.

«لا يوجد في هذه الدنيا من يستطيع انتقادي بشكل قوي ومباشر غير هذا الطفل.»

هكذا اعتقدت ستسكو. كانت تخاف من التفكير في أن يُدفن كل شيء كما هو وأن يُغفر.

عندما تقف مع تسوتشيا بمفردهما في شرفة الفندق المظلمة، وأثناء رؤيتهما أنوار المدينة البعيدة الكثيفة العدد، ويتبادلان الحديث عن الطفل الذي سيتم التخلص منه، لا تشك ستسكو أن تلك الليلة ستبقى طويلًا، طويلًا في الذاكرة.

تهتز تحت شرفة الفندق أشجار الخيزران مع نسائم الليل محدثة حفيفًا خفيفًا. كان يوجد في ذلك الحفيف طيف لهطول الأمطار، وكانت ظلال أضواء النيون الكثيفة في ليل المدينة، مغبشة قليلًا في هواء الليل الغائم.

ليس من الصواب الاعتقاد أن الاثنين أصيبا بالوقار بسبب جعل الطفل موضوع حديثهما. استخدمت ستسكو في تلك الليلة، هذا القرار المصيري، والتخلي عن مشاعر الأمومة، وحتى قدر ذلك الطفل التعيس الذي لم يتكون شكله بعد، للتنكر في زي الكبرياء. لأول مرة يتولَّد لها مصيبة مشتركة مع تسوتشيا، وقررت ألا تترك ذلك يُفلت من يديها، والأصوب القول إنها تشبثت بها.

لم تلُم ستسكو تسوتشيا في أقل القليل، وكذلك يجب التعجب من حسن انتباه تسوتشيا لذلك الأمر. صمت واستمع فقط لحديثها بدون أن يُظهر أي نوع من الحيرة أو التردد، وكانت نتيجة ذلك عدم تلفظه بكلمة من معجم النذالة والجبن بمجرد صمته فقط، فقد تزين كل شيء أمامها بالشكل والهيئة المناسبة.

ذهبت ستسكو بعد مرور يومين وفي الصباح الباكر إلى العيادة التي حُقنت فيها، فأنهت عملية الإجهاض، وبعد أن استراحت هناك حتى الليل عادت لمنزلها، رقدت في الفراش مدعية إصابتها بنزلة برد. ظل زوجها الذي عاد متأخرًا يعرض عليها بإلحاح استدعاء الطبيب، ولكنها رفضت قائلة إنه مجرد صداع خفيف، ولهذا السبب أعدت مسبقًا فوق منضدة الفراش دواء البرد وكوبًا من الماء ناقصًا قليلًا وكأنها قد ابتلعته لتوِّها.

كان كيكو قد نام بالفعل. فتحت ستسكو أثناء فترة انتظار عودة زوجها أدراج المنضدة التي بجوار الفراش بلا أي حسبان، فرأت عددًا من الصور واللوحات التي مرَّ وقت طويل على آخر مرة شاهدتها فيها. لم يكن ذلك إلا مجرد اعتقاد أن ما بينها وبين تسوتشيا حتى ذلك اليوم هو مجرد أوهام ومبالغة فقط، ولكن مع استمرار النظر، ورغم أنها لم تكن تتأمل نفسها على الإطلاق، ولكنها بدأت تعرف أن ذلك ليس أوهامًا ولا مبالغة زائدة؛ فتوجد بالتأكيد حالة سُكر، وشعرت ستسكو أنها تعرف ذلك الآن بحاستها المباشرة.

ولكن عند التفكير هذه الليلة بمشاعر هادئة وهي في حالة فقر دم، شعرت بحالة أمان كامل لأن مثل ذلك السكر يمرُّ عرَضًا لمرة بجسد ستسكو، ولكنه مثل ذلك الطفل الذي فقدته اليوم، يختفي معه ويعقد العزم على ألا يعود إلى هذا الجسد مرة ثانية. أحسَّت أنها استطاعت تخطِّي الرغبة الجنسية. بدا وكأنه لا يوجد أي شيء في المستقبل الآتي، ولكن عندما تُسلم جسدها حاليًّا بهذا الشكل إلى الفراش، تُحسُّ أنها لن تستطيع الراحة حقًّا، إلا في ذلك المكان الذي لا يوجد به أي شيء مطلقًا.

شيء ما قد انتهى بكل تأكيد. أخيرًا ظهر ظل الحائل الذي كان منتظرًا لمدة طويلة، الشيء الذي كان ضروريًّا بشدة بينها وبين تسوتشيا، بل وقد اختفى فورًا بعد أن أظهر ظله لفترة وجيزة جدًّا .. بهذا الشكل انتهى شيء ما.

الفصل الرابع عشر

اليوم التالي ادَّعت ستسكو أنها شُفيت من البرد، وودعت زوجها حتى باب البيت، ولكن بعد ذلك عادت إلى الفراش، وقضت اليوم كله تُريح جسدها. ظهر التعب فجأة، وأحست كأن حياتها المعيشية التي تخطتها بصعوبة، لم تكن حياة آدمية. صارت كل الذكريات الجميلة المذاق بذورًا للآلام، ثم أثناء تلك الراحة الحالية، كان الإرهاق الجميل المعبأ داخل الجسد المجهد، هو اكتشاف ستسكو الجديد الذي لا تريد لأحد مهما كان أن يغتصبه منها.

تأملت ستسكو بعد فترة غياب طويلة أشعة الشمس الخريفية تنتقل عبر حديقة المنزل. كانت تنتقل من أجمة إلى أخرى، ومن شجرة زيتونية مزهرة إلى أعشاب الكُنباث التي ستقطع عن قريب. تأملت تربة الخريف السوداء التي لها كثافة حقيقية، ورطوبة بشكل دقيق ورفيع. أثناء ذلك، ظنت أن سلوك مشاهدة الضوء الهادئ للغاية ذاته، وكأنه يناسب طبيعتها بالدرجة الأولى. كان من الأفضل لها أن تولد كساعة شمسية.

ليست تلك على الأغلب ما يُطلق عليها الحياة .. حياة المنفى في منزلها هذا .. المنزل الذي يخلو من حسِّ أي إنسان، ولكن هل يا ترى الحياة في الأصل، شيء لا يمكن الاستغناء عنه لهذه الدرجة؟

أحسَّت ستسكو التي استقبلت عنف انعكاس شمس الغروب من النافذة، بالحر رغم ارتدائها قطعة واحدة هي المنامة فقط، وهنا ظهر كتفها الذي كشفته في المرآة، ورغم أن كتفها الجميل مكتفٍ تمامًا بوحدته هكذا، لماذا لا تستطيع أن تؤمن داخلها أو تقتنع بتاتًا بوجود هذا الكتف الجميل، إلا بحركة شفاه تثير القشعريرة، تلمسه وتتبع حدوده، وكأن كتفها الجميل وقلبها شيئيان مختلفان، ورغم إحساس الجسد بهذا الشكل الاكتفاء ذاتيًّا؛ إلا أنه يبدو القلب على العكس يشعر بالظمأ، وصار جشعًا.

مالت شمس المغيب نحو الظلام، وهبَّت نسمات الريح، وعندما برزت بوادر ظلام الغروب في الحديقة، ورغم أن ستسكو كانت حتى وقت قليل مضى، في حالة نفسية صافية بدرجة كبيرة متأملة مشاعرها الداخلية، وكأنها ساعة شمسية فقدت أشعة الشمس، أصابتها الحيرة فجأة، فسقطت مشاعرها مرة أخرى في الدوامة اليومية للحزن والندم والتردد والكراهية. اتصلت هاتفيًّا بمنزل يوشيكو، وقالت لها وهي تؤكد على ضعف نبرات صوتها، إنها مريضة وتنام في الفراش وترجو منها المجيء لعيادتها في مرضها. عندما تُظهر ستسكو دلالها على أحد دائمًا ما تصبح لهجتها آمرة.

جاءتها يوشيكو على الفور، وعندما أبلغتها بحقيقة المرض، ضحكت بلا مبالاة لا تُظهرها إلا للأصدقاء فقط. كانت يوشيكو لديها فضيلة نادرة بين النساء، وهي فضيلة حسن الاستماع لمحدثها.

بعد أن استمعت يوشيكو إلى الحكاية بأكملها، حدثتها بكل صراحة عن عقمها، وقالت لها ضاحكة إن رحم ستسكو الحساس للحمل دائمًا هو رحم حيواني، ومع ذلك قالت إن الحاجز العادي كل شهر هو ذاته الذي يعطيها شهادة بأنها إنسانة.

قالت يوشيكو: «إن هذا الشيء الذي يأتي كل شهر أمر مزعج فعلًا، ولكنه مفرح جدًّا.»

في تلك اللحظة أحست ستسكو أن يوشيكو عاهرة قد أتت لزيارة عاهرة صديقة لها في مرضها.

كان مرح يوشيكو يتزين بشيء ما آخر، أكثر من مجرد كونه مشاعر قلبية تحاول التسرية عن المريض ورفع روحه المعنوية، ويبدو أن يوشيكو كانت قد فقدَت صبرها. عندما بدأت ستسكو تتكلم بنبرة كأنها قديسة عن عدم توجيهها أي كلمة لوم لتسوتشيا حتى النهاية.

– «وهكذا، هل يعلم السيد تسوتشيا، أنك قمت بالعملية أمس؟»

– «لا، فأنا لم أخبره بذلك.»

– «حسنًا .. إذا كان الأمر كذلك فلا بأس ...»

– تكلمت يوشيكو بشكل مبهم وغير واضح، ولكن ستسكو سألتها بإلحاح عمَّا تخفيه.

– «إذا كان الأمر كذلك فلا مانع، ولكني شاهدت السيد تسوتشيا ليلة أمس في النادي الليلي.»

لم يكُن ذلك يمثل صدمة كبيرة بعدُ بالنسبة لستسكو، وهنا سألت متشككة بهدوء: «ولكن رغم أنك لم يسبق لكِ لقاء تسوتشيا، هل عرفتِه؟»

– «طبعًا أعرفه. فأنت قد أريتني صورته عددًا من المرات.»

– «هل كان بصحبة أحد ما؟»

تغاضت يوشيكو عن الرد على هذا السؤال.

– «كان يجلس بالمقعد الذي بجواري، وعرفته في الحال. شعور جيد عندما تعرف أحدًا وهو لا يعرفك إطلاقًا. السيد تسوتشيا من خلال تخيلي له من الصورة، كنت أتساءل عن كُنهِ صوته، ولكن صوته كان بالفعل مثل ما تخيلته تمامًا.»

– «من كان معه؟»

أعادت ستسكو السؤال. ردت يوشيكو باختصار ذاكرةً اسم إحدى الممثلات. كان اسم تلك الممثلة التي لمحاها في إحدى المرات التي تواعدت فيه هي وتسوتشيا في إحدى الرحلات. ستسكو أسرعت بالدفاع عن تسوتشيا وحاولت حَبك الحكاية.

– «إذا علم أنني كنت أعمل العملية أمس، فحتى هذا الرجل لن يذهب بالتأكيد إلى هذا المكان. لا حيلة في الترفيه عن النفس حتى لو لم تكن لدرجتي، ولكن ذلك الرجل أيضًا يحس بالقلق. بالتأكيد.»

هناك أمر واحد كانت تخفيه ستسكو عن يوشيكو. حقًّا إن تسوتشيا لم يكن يعرف اليوم الذي سيتم فيه إجراء العملية، ولكنه من خلال نبرة حديث ستسكو في آخر لقاء بينهما كان يستطيع على الأغلب تقدير أن يوم إجراء العملية كان أمس.

بعد ذلك حكت يوشيكو عن مشاكل علاقتها العاطفية، طالبة منها أن تقابل ذلك الرجل ولو مرة واحدة، محدثة عن اعتقادها أن رأي طرف ثالث سيأتي بنتيجة جيدة بالدرجة الأولى، وطلبت منها أن تتحدث إليه بجدية وإخلاص، وأثناء حديث يوشيكو ذلك، أحست ستسكو أنها شاردة الذهن وأن جفونها فقط هي التي تتحرك. بعد رحيل يوشيكو بكت ستسكو، وأصبحَت اليوم التالي بأكمله مريضة بشكل حقيقي، وعانت من صداع نصفي. صارت الحدود الفائقة التي حصلت عليها مرةً هراءً، وذاقت لأول مرة منذ ولادتها طعم الغَيرة، ولا تعرف عدد المرات التي حاولت ستسكو فيها مكالمة تسوتشيا هاتفيًّا ولكنها تتردد. صارت خُطتها في عدم إخباره بيوم العملية وأن تقابله في اللقاء التالي بوجه لا مُبال، ثم تخبره فقط بالنتيجة، فقاعة ماء، ولم يَعُد الوقت الآن وقت إخبار تسوتشيا بنتيجة العملية، وكذلك لو قامت بالاتصال مرة، فلن تستطيع منع نفسها من لومه تجاه

حادثة النادي الليلي. لا توجد ولا فائدة واحدة من الاتصال الهاتفي، ورغم ذلك ظلت ستسكو يغلي قلبها حقدًا، وهي تتلهف على سماع ولو كلمة واحدة من صوت تسوتشيا.

كان الأمر الذي عرفته لأول مرة بعد وصولها لهذه السن، هو أن شعور وحدة الغيرة، وذلك الاندفاع بلا صبر، لا توجد إلا وسيلة واحدة لإطفاء ذلك الغضب المستعر، وهي التوجه للطرف الآخر من شعور الغيرة، الطرف الذي سيصبح لوقت طويل هو العدو، ومد يد الشكوى له للتعاطف معها. كانت تعرف من البداية أن ذلك العدو هو الوحيد الذي بيده الشفاء. التعلق بسيف العدو الذي جرحها وطلب الدواء الشافي، لا يوجد حل آخر.

ولكن ستسكو استطاعت أن تسيطر على مشاعرها. حقدت على تسوتشيا، مع تلهفها على سماع صوت تسوتشيا، استطاعت أن تتحكم في نفسها. مقارَنة بتلك المعاناة، لم تكن عملية الإجهاض تساوي شيئًا بالمرة.

ولهذا السبب تولَّد لجسم ستسكو (لنقل الجسد وليس الروح بالرغم من ذلك) ثقة بالنفس ذات قوة ما بالغة الحساسية. تشبه هؤلاء الناس الذين وُلدوا في الأقاليم البالغة البرودة، وهم يمتلكون ثقة بالنفس تجاه البرد. الإحساس بـ «إنني في وقت من الأوقات تجهزت بتلك القوة التي تجعلني قادرة على تحمل هذا القدر من المعاناة.»

الفصل الخامس عشر

خصصت يوشيكو وقت الظهيرة في أحد الأيام لستسكو، وجعلتها تقابل عشيقها المسمى «إيدا». لا تُحس ستسكو بأي عرفان لهذه المقابلة على الإطلاق. عندما قابلته وجدته رجلًا يقترب عمره من الأربعين عامًا جافَّ الطباع متكلف المنظر، مما جعلها ترتاب في ذوق يوشيكو. لقد كان بالنسبة لستسكو من نوع الرجال الذين ليس لهم أي جاذبية، ولكن ستسكو المتواضعة لم تُظهر هذا الانطباع على ملامح وجهها، ومن خلال بصيرتها النافذة التي اكتسبتها على مدى الأيام، حرصت على ألا تساير يوشيكو حتى لو تلفظَت الأخيرة فيما بعد بشتائم تجاه هذا الرجل التي كرهته بالفعل وتعتبره مزعجًا. ثم بدأت ترسم في خيالها ملامح الوجه الفائق الحيوية والشباب والذي سيصبح عدوها اللدود على مدار فترة من الزمن، وتعجبت من مشاعر الفخر التي أحست بها عندما قارنت بسرعة بينه وبين إيدا.

على أي حال فقلب ستسكو الآن لا توجد به أية مساحة خالية لمراعاة مشاعر الصداقة. لقد كانت تستمع شاردة تمامًا إلى إلقاء الاثنين لشكواهما بالتبادل، وقد نفِد صبرها من شكوى الرجل المخلصة والملحة في نفس الوقت، وهي تتذكر طزاجة الرجل البارد غير المخلص.

وهكذا بينما سقطت هي في تلك الحالة من الشرود التام، فقد فوجئت أن يوشيكو وإيدا كانا قد بدآ مشاجرة كلامية أمامها. كان المكان عبارة عن بار في أحد الفنادق؛ لذا فمن حسن الحظ أن كل الزبائن كانوا من الأجانب، ولكن الاثنين اللذين نسيا اللباقة، أخذا يتبادلان التجريح الذي وصل لدرجة تقييم العملية الجنسية، وأثناء ما كانت يوشيكو في حالة خفقانٍ قلبي، وقف إيدا الذي كان قد احمرَّ وجهه من الغضب وغادر المكان فجأة.

كانت يوشيكو التي تُركت لا زالت الحُمرة تعلو وجهها وتقاطعَت أنفاسها قليلًا، ولكن كانت ملامحها وكأنها مغلفة بغشاء من الجبس الرقيق. قامت ستسكو بمواساتها ببعض الكلمات، ثم اعتذرت لها عن عدم استطاعتها المساعدة، ولكن يوشيكو قالت: «لم يكن هناك حل آخر سوى إغضابه بهذه الطريقة لجعله يرحل، وإلا لظَل طوال اليوم دون أن يفارقني. شيء مقزز. إنني على وشك الموت يا صديقتي.»

لم يكن للحديث تكملة، فراحت ستسكو تدور بنظرها في زبائن البار. كانت هيئتهم عبارة عن سياح لديهم المال والغِنى ويفيض لديهم وقت الفراغ. كانوا قد ملُّوا كثيرًا من وضعهم المعلق أثناء الرحلة، يهزون أرجلهم الفارعة الطول الموضوعة إحداها على الأخرى، يفردونها حينًا ويثنونها آخر.

فجأة رأت ستسكو في ذلك وضعها السابق. في ذلك الوقت لم تكن ستسكو تعرفت على الغَيرة، وكان لديها فائض من وقت الفراغ. لكن الآن هل رحل عنها ذلك الفراغ؟ إذا سألت نفسها هل تَولَّد لديها عِوضًا عن وقت الفراغ شيءٌ له كثافة مؤكدة يملأ ذلك الفراغ، لكانت الإجابة بالنفي.

وجهت يوشيكو لها الحديث فجأة قائلة: «ألا توجد لديك رغبة في الانتقام من حادثة الملهى الليلي؟ من أجل ذلك يجب عليكِ الاستعداد جيدًا وانتظار الفرصة المناسبة بتأنٍّ. غدًا ستقابلين تسوتشيا للمرة الأولى بعد الجراحة أليس كذلك؟ عندما تقابلينه حذار أن تذكري على لسانك شيئًا عن موضوع الملهى الليلي. لو أظهرتِ غَيرة عليه سينتهي الأمر.»

ابتسمت ستسكو قائلة: «أنا أفهم ذلك.»

كانت ستسكو في ذلك الوقت قد وصلت تدريجيًّا إلى ذلك الشعور حتى دون إرشادها، ولكنها خجلت أن تقول إن ذلك حدث بفضل معايشتها للمشاجرة الفاضحة التي وقعت بين يوشيكو وإيدا.

ثم بعد ذلك علمتها يوشيكو خطة سرية، وعلى كل حال فبعد العملية لا بد لها من أسبوعين أو ثلاثة أسابيع لتريح جسدها وتعتني به؛ ولذلك في هذه الأثناء يجب عليها أن تقابل تسوتشيا دون مماطلة أو تأخير، ثم بعد ذلك تَعِده بكلام واضح وصريح أنه أخيرًا في اللقاء التالي يمكنهما النوم معًا، ولكن عندما يأتي ذلك اليوم وعندما يحين وقت الذهاب إلى الفندق، تتمنَّع ستسكو عن تسوتشيا دون إبداء الأسباب، ويجب عليها في ذلك اليوم الرفض بعناد مهما كان الأمر، وقالت لها إنه بفضل هذا الانتقام ستنعم ستسكو بفرحة استعادته أخيرًا.

«سأعمل كما تقولين لي تمامًا.»

قالت ستسكو ذلك الآن وهي تضحك ضحكة شخص متمكن.

«لا تضحكي هكذا. عاهديني أن تفعلي ما قلت لك بالتأكيد.»

عقدت الاثنتان أصبعي خنصريهما اللذين تلونَ أظافرهما بطلاء ذي لون مرجاني وطلاء ذي لون أحمر غامق.

فعلت ستسكو ذلك بالضبط. فعلته بسهولة ويُسر للدرجة التي يُعتقد فيها الآن غرابة المعاناة التي عانتها من الغيرة إلى تلك الدرجة. يا لها من طزاجة أن تكذب في عواطفها تجاه عشيقها لأول مرة!

بالإضافة إلى ذلك فقد أحسَّت أنها قد بدأت الآن العلاقة الروحانية التي كانت تريدها. لقد قام تسوتشيا بالفعل بمراعاة ستسكو عاطفيًّا والحدب معها، وعاملها كمَن يتعامل مع قطعة فنية من الزجاج المنمق سهلة الانكسار. أحست ستسكو التي كانت لديها ثقة في القوة غير المتوقعة المكمونة في جسدها، بسرور أكثر من المعتاد لهذه المعاملة، وكذلك أسعدها أن تسوتشيا لم ينسَ التلميح المؤدب والمحترم.

– «اليوم نزهة فقط. المرة التالية رقص، والمرة التي تليها سيكون الوضع أمانًا.»

– «أحقًّا أمان؟»

– «أمان مائة بالمائة، ومع ذلك سأكون قد أحطتُ للغاية وبشكل مبالغ فيه.»

سألها تسوتشيا عددًا من الأسئلة عن تفاصيل الجراحة، وأجابت ستسكو بشكل علمي ومختصر.

– «لقد تم تخديري في الساعة العاشرة صباحًا، وأفقت من التخدير في الظهيرة، وبعد العملية كان مفعول المخدر قد زال وهي المرحلة الأشد إيلامًا.»

– «يا مسكينة!»

بهذه الطريقة قال تسوتشيا كلمة المواساة الاجتماعية تلك، بصوت اجتماعي لطيف ودافئ مصطنع. ستسكو التي كانت تعرف أنه في نفس لحظات تألُّمها تلك كان هو يلهو مع الممثلة، أتعبها للغاية كتم غضبها الذي انفجر بسبب هذه الكلمة. ولكن ستسكو التي أصبحت أكثر نضجًا تغلبت على هذا الموقف، وعلى العكس كادت تُحسُّ داخل قلبها بالإشفاق على تسوتشيا.

«مثل هذا الشاب بالذات هو من يحقق النجاح الباهر فيما لو صار سياسيًّا.»

ومع ذلك يوم النزهة كان يومًا استمر فيه مطر الخريف الخفيف، وتجول الاثنان سيرًا على الأقدام بين المنازل الرطبة القديمة التي لم تتأثر من دمار الحرب. أوشكت الشمس على

الغروب، ولا يوجد مارة في الطريق. يوجد منزل مائل قديم يُطل على النهر، مضاء بالأنوار، الطريق العتيقة تنحدر بشدة، وتصير مسدودة فجأة. أحيانًا ما يوجد في نهايات مثل هذه الحارات المسدودة، مدخل لمنزل به باب عليه مزلاج أفقي ربما لم يزُره أحد منذ أمد بعيد، وكان يوجد كذلك مكتب للمحاماة يبدو اسمه وكأنه على درجة من الانتشار.

قالت ستسكو: «أنا أمشي بقدر الإمكان لأعوِّد قدميَّ على السير بعد العملية.»

كان الاثنان يحملان مظلة واحدة فقط تقيهما من المطر، وكان تسوتشيا من شدة عطفه قد جعل المظلة فوق ستسكو فقط لدرجة أن الماء قد بلله تمامًا. ولقد تعلمت ستسكو أن تمرر هذه العاطفة وهذا الحنان دون أن تجعله يؤثر في قلبها؛ فلا يجب زيادة نطاق تأرجح قلبها بلا داعي بسبب انفعالها مع عطفه كل مرة. من الأفضل أن يبتل جسد تسوتشيا بماء المطر. من الأفضل أن ينتقل ماء المطر من المعطف الواقي إلى الجاكت، ومن الجاكت إلى القميص، ومن القميص إلى الفانلة الداخلية، ثم يتدفق بقسوة وعنف فوق بشرة هذا الرجل.

بعد اللف والدوران مرة بعد مرة في طرق ضيقة فترة لا يُعرف مداها، وجد الاثنان نفسيهما فجأة وقد أحاطت بهما ضوضاء الناس والسيارات المسرعة. لقد خرجا إلى حافة هذا المكان المزدحم.

بدا ازدحام هذه الطريق الصاخبة والمضيئة في المطر كأنه خيال. تلألأت أنوار النيون الضخمة المزدوجة والمعلقة فوق البنايات المبللة على مرمى البصر، ومثل الأذن الصماء التي لا تسمع وفجأة تصير قادرة على السمع، تفجرت أصوات أحاديث الناس الصاخبة، وصوت الأغاني المنسابة من المذياع، وأبواق السيارات.

قالت ستسكو: «لم أكن أعتقد أننا سنخرج إلى هذه الطريق بعد السير في تلك الأزقة.»

تظاهر الاثنان وكأنهما في بداية خروجهما إلى المدينة، فدخلا أحد المحلات المضيئة المزدحمة لتناول الشاي.

كانت المرة التالية رقص. والمرة التي تليها كانت ...

لقد مر بالفعل ما يقرب من اثني عشر يومًا على الإجهاض. عندما تفكر ستسكو أن الغد هو اليوم الذي ستستعيد فيه العلاقة أخيرًا مع تسوتشيا، ورغم تحذير يوشيكو لها، تفور لديها مرة بعد مرة آثار الإحساس بالندم الباقي تجاه فترة الأسبوعين الأخيرين. فرغم المعاناة الكبيرة تلك ورغم مشاعرها الكاذبة؛ إلا أن روحها خلال فترة الأسبوعين تلك كانت في حالة هدنة. كل شيء توقَّف تقدُّمه، توقف النضج وتوقف التعفن، وفلتت لفترة من القانون الصارم الذي يسير للأمام بيأس وتهور ليُوقع الناس في حباله.

ولكن من الغد سيختلف الأمر. ستبدأ الحرب مرة أخرى. من أجل المحافظة على نصيحة يوشيكو تمامًا، من الفطنة الذهاب مرتدية ملابس داخلية متسخة لا يمكن خلعها أمام أي إنسان، ولكن ستسكو بحجة حُبها الغريزي للنظافة وتربيتها الراقية، أعدت مثل من يُعِد الترتيبات لرحلة مدرسية منذ الليلة السابقة، الملابس الداخلية الجديدة التي سترتديها صباح الغد، مع القميص الداخلي الذي اختارته ليناسب الملابس.

عاد زوجها كما هي عادته من عمله متأخرًا، وبمجرد عودته تصاعد غطيط نومه؛ فقد أصبح عن طيب خاطر زوجًا لا يطلب شيئًا، بعد رفض زوجته له مرة بعد مرة. كان هذا الرجل الذي لا يستطيع التعبير عن اللؤم على الإطلاق، لا يُظهر أمام زوجته إلا وجهًا نائمًا بجانبها، لا يمكن وصفه إلا بأنه يفيض إخلاصًا.

تصلبت عضلات ستسكو عندما اقترب موعد اللقاء في اليوم التالي، وذلك بسبب توترها تجاه مسئولية أنها لا بد أن تتمنَّع اليوم.

كانت تخطط أن تظهر بشكل عفوي بعد أن تتأخر قليلًا أمام تسوتشيا الذي ينتظرها، ولكن اندفاع ستسكو وتسرعها قادها بلا وعي إلى مكان المقابلة قبل الموعد المحدد، ولم يكن تسوتشيا قد جاء بعد.

لا يأتي تسوتشيا للآن. كلما انتظرت ستسكو، يهجم عليها إحساس مؤلم بأنها اليوم ليست ذاتها الخاصة التي صارت عليها بعد الجراحة، ولكنها مجرد استمرار لما كانت عليه نفسها من قبل، ولا يزيد لقاء اليوم أيضًا عن كونه استمرارًا لتلك اللقاءات المهينة. كلما فكرت في ذلك اعتقدت أكثر في أن نصيحة يوشيكو مناسبة تمامًا.

وفي نفس الوقت، أحست ستسكو أن الغيرة التي سيطرت عليها كما قالت لها يوشيكو، تعود بوضوح للحياة من جديد في هذا اليوم خاصة. لا يأتي تسوتشيا للآن. عندما تفكر في تأخره لهذه الدرجة، تفكر ألم يكن اشتياق تسوتشيا لهذا اليوم هو مجرد تظاهر، ولكنه في الواقع يحاول أن يتلافى جسد ستسكو؟

تدريجيًّا يساعد هذا القلق أكثر وأكثر في إشعال نار الغضب، يجعلها تعتقد أنها أكثر امرأة بائسة في هذا العالم؛ لأنها قد غفرت له بعطف وحنان عدم إخلاصه حتى الآن، حتى ولو كان على سبيل التظاهر. يبدو أن تسوتشيا قد اغتر بنفسه أكثر وأكثر، ربما يكون قاصدًا التأخر خلال مواعدة اليوم حتى يعطي لنفسه براحًا.

مرت عشرون دقيقة .. وعندما اقترب الوقت من الثلاثين دقيقة، وقفت ستسكو محاولة العودة بمفردها، وقدمت الفاتورة عند الماكينة، وعندما دفعت الباب للخروج، وقف تاكسي أمام عينها ونزل تسوتشيا منه.

نظرت ستسكو التي أصبحت بفعل الغضب طفلة تمامًا في تصرفاتها، إلى تسوتشيا سريعًا ثم انطلقت مسرعة وكأنها لا تعرفه. تبعها تسوتشيا، ولكن لم تحاول ستسكو النظر للخلف. قال تسوتشيا وهو يتفادى المارة وقد تحاذى كتفاهما بعد أن وفَّق خطواته مع خطواتها القصيرة التي تسرع بعناد: «مشيتك سريعة جدًّا.»

نظرت ستسكو التي غضبت أكثر وقد اعتقدت أن تسوتشيا قال ذلك للمزاح والتنكيت، سريعًا إلى وجهه من الجنب، ولكنها وجدت في وجهه الجانبي ما يبدو وجهًا جادًّا لشاب، وكان الوجه يتلألأ قليلًا. كان لهذا الرجل مهارة خاصة ينفرد بها عن غيره، وهي أنه عندما يصطدم بموقف يصعب عليه التعامل معه؛ فهو يستطيع التحول في التو والحال إلى فتًى صغير يضيق ذرعًا بكل شيء.

كان الجو في ذلك اليوم باردًا تكثر فيه الغيوم، كانت برودة منتصف شهر نوفمبر، ويتعاظم الشعور بأن هذا اليوم هو الحد الذي ينتهي به فصل الخريف.

«الجو بارد. هيا لنذهب إلى مكان دافئ.»

قال تسوتشيا ذلك ثم أردف: «لماذا أنت غاضبة؟ هيا نختلي بنفسنا بسرعة.»

تعبير نختلي بنفسنا هذا هو التعبير الذي يستخدمه تسوتشيا دائمًا عندما يعرض عليها الذهاب إلى فندق.

– «لدي حديث لك.»

– «حديث! مرة أخرى.»

فتحت ستسكو غير آبهة باب أحد المحلات في الطريق، ثم أمرت تسوتشيا بالدخول. كان محلًّا يذهب الاثنان إليه لأول مرة، محل هادئ لا صخب فيه، يقدم في الظلام قهوة، تبدو قذرة ورديئة الطعم.

قال تسوتشيا: «لقد مللت الشاي.»

– «لا بأس.»

قالت ستسكو ذلك بعد أن طلبت بدون اعتبار، ومن حسن الحظ أن عدد الزبائن كان قليلًا جدًّا.

بدأ تسوتشيا في قول السبب الذي تأخر بسببه. كانت ستسكو قد فقدت صبرها. لم تَعُد تستمع لما يقوله، فقاطعت حديثه في منتصفه، وكان يجب عليها، طبقًا لإرشادات يوشيكو، أن تتمنع قبل الفعل مباشرة، ولكن ستسكو كانت قد فقدت رفاهية الانتظار حتى ذلك.

– «اليوم .. اليوم لا أرغب في الذهاب كما تواعدنا.»

– «لماذا؟ ألم تعِدي بذلك؟»
– «لا أرغب على أي حال. معذرة أنا لا أستطيع الذهاب.»
– «لماذا؟ آه ... أكيد غاضبة لأنني تأخرت.»
– «ليس الأمر كذلك.»

ردت ستسكو بصوت عالٍ: «فقط .. لا أرغب.»

صارت ملامح وجه تسوتشيا الذي قُوبل بالرفض بريئة في الواقع، تعبيرات وجهه وقتها اختلفت تمامًا مع ما تخيلته ستسكو عندما فكرت فيها قبل ذلك. كانت فقط عبارة عن ملامح صريحة لوجه مندهش. ملامح وجه تشبه ملامح طفولية لوجه كلب ينتظر عقابه وهو لا يعرف إطلاقًا ما هو الجرم الذي ارتكبه، ملامح بدت وكأنه لا يعلم حقًّا سببًا للتمنع. أحبت ستسكو في تلك اللحظة، هذا الوجه الطاهر الذي أصبح مشدودًا بسبب عدم الرضا، ولكنها رأت أنه من الأفضل أن تخبئ هذا الحب كما هو بهدوء داخل قلبها.

هل يا ترى ملامح تسوتشيا هذه تمثيل؟ بدأت تتسرب إلى ستسكو الشكوك أن من المحتمل أن تكون ما أخبرتها به يوشيكو عن تسوتشيا هي مجرد افتراءات. لو كان الأمر كذلك، ستبدو طريقة ستسكو وكأنها ترغب في إحداث المشاكل بلا معنى، وهنا طرحت عليه سؤالًا: «أين كنت أنت في ليلة اليوم الفلاني من الشهر الفلاني؟»

«يوم كذا شهر كيت؟ إنه يوم أجريتِ الجراحة. أجل .. أجل. أين كنت أنا يا تُرى؟ في تلك الفترة من المؤكد أنني كنت طوال الأيام في قلق دائم، ولم أكن قادرًا على العودة إلى المنزل مبكرًا.»

أخبرته ستسكو باسم الملهى الليلي، وكذلك ذكرت له اسم الممثلة التي كانت تصاحبه. أصبحت ملامح وجه تسوتشيا وكأنه يبحث بيديه في ذاكرته بإمعان.

وفي تلك الأثناء كانت ستسكو هي التي غفرت له بالفعل، وإذا قال إن ذلك لا أساس له من الصحة، كانت على استعداد تام أن تنسى كل شيء. عين تسوتشيا القاتمة التي تشبه عيون فتى صغير، كانت تتلصص داخل ذاكرته بصدق حقيقي. يحمل وجه فتًى صغير غرق في التفكير وحيدًا، يقضم أظافره ... فجأة أصيبت ستسكو بالقلق.

لقد خيبت إجابة تسوتشيا توقعاتها تمامًا.

«آه ... لقد تذكرت. لقد ذهبت تلك الليلة بالفعل .. وكانت تلك المرأة معي. من الذي شاهدنا يا تُرى؟»

بعد أن سمعت ستسكو هذا أحست بانقباض صدرها، وسقطت الدموع تلقائيًّا بشكل طبيعي. لقد أحست أنها وصلت إلى حالة ميئوس منها.

بعد رؤية دموع ستسكو تنهمر بدأ على الفور منطق تسوتشيا في الحُجج. أخذ يلصق الشروح والتفسيرات النفسية بنفسه، وقال لماذا تصبح الذكريات التي عانى لهذه الدرجة في تذكرها، ذكريات هامة لهذه الدرجة؟ وأخيرًا، وفي موقف هجومها على أمر خليع باصطحاب امرأة للهو في ملهًى ليلي في يوم إجرائها للجراحة تحجج بالقول إنه لم يكن يعتقد أبدًا أن ذلك اليوم هو يوم الجراحة، وقال كذلك إن اصطحاب الممثلة كان مجرد صدفة بحتة. وقال لو كان الأمر أكبر من مجرد أنها صديقة عادية، لم يكن ليعترف لها بالأمر بهذه السهولة ولأكد أنه بريء تمامًا، ولكن يوجد سبب يجعل ستسكو تشكُّ أن هذا الاعتراف ذاته بتلك السهولة لا بد أن يكون محسوبًا مقدمًا.

احتضن ذراع تسوتشيا الكتف المتواضع الذي يبكي. أبعدت ستسكو ذلك الذراع، وولت بوجهها نحو الاتجاه الآخر وبكت. رغبت ستسكو أن يبدو كتفها عنيدًا بقدر الإمكان.

إلى أي مدًى ظل الاثنان على هذا النحو! لقد توقف بهما الزمن. أسلمت ستسكو التي غطت وجهها، أذنيها للأصوات المتنوعة الصادرة عن فتح باب المحل، أو صوت أقدام الزبائن، أو صوت الأطباق التي تصدر فجأة عالية مع وقفات صوت الموسيقى الخشنة التي تصدر من المسجل، وبعد فترة من السماع أصبحت تلك الأصوات فقط هي التي تستهويها لدرجة أن ستسكو أخذت تحصي عدد مرات انفتاح وانغلاق باب المحل.

وفجأة أبعدت ستسكو عن وجهها المنديل الذي كانت قد أخرجته من حقيبتها منذ قليل وهي تتحسس موضع يدها، ثم بعد ذلك لمحت تسوتشيا بنظرة سريعة. هذا الفتى بملامحه المحبطة والغاضبة على العالم، ينظر بعينه إلى الناحية الأخرى من الجدار.

على الأرجح لم يسبق لتسوتشيا أن أظهر تلك التعبيرات الوقحة والمكشوفة للعيان. هذا الوجه كان على الأغلب بعيدًا، وإذا تُرك وشأنه على هذا الحال يعتقد أنه على وشك أن يذهب بعيدًا إلى الأبد. فقدت ستسكو التي رأت ذلك تمامًا، ثقتها في قدرتها على الرفض. تلك الثقة التي كانت منذ قليل قد بلغت قمتها.

وكأن تسوتشيا قد فهم أن الأمر قد استقر، خرج بها من المحل، وأثناء السير في المدينة أزاحت ستسكو دموعها بكبريائها التي عادت لها من جديد. أوقف تسوتشيا سيارة وهو صامت، ولأول مرة تحدثَت ستسكو لتسأله إلى أين؟ أجاب تسوتشيا إلى مكان ما دافئ. داخل السيارة عاودت ستسكو البكاء. هذه المرة تبكي بسبب جبنها هي، وربما لاحظ تسوتشيا ذلك، ودون أن يواسيها قام بعقد ذراعيهما، وجلس على المقعد مسندًا ظهره بعمق؛ أي إنه تصرَّف بعزيمة ثابتة.

وعندما وصلا غرفة الفندق، فقَد جسد ستسكو قوته بسبب البكاء المرير، وأصبحت مثل دجاجة نافقة، أما تسوتشيا فكان واقفًا يعمل بهمة وسرعة. خلع عنها الجوارب، وخلع عنها ملابسها، خلع عنها القميص الداخلي، ثم خلع عنها مشد الخصر. كان كل ذلك يحدث تحت مصباح شديد الإضاءة. أثناء ذلك أحسَّت ستسكو التي استرخت قواها ووصل جسدها لقمة الضعف، استسلمت تمامًا لما يُفعل بها، أحست بلذة عنيفة لم تعرفها من قبل تجمعت في أنامل تسوتشيا الفظة. لم تكن أصابع عاشق تملؤه الثقة بالنفس وتتميز برباطة جأش.

أحسَّت ستسكو بشفاه الرجل على ساقها. لو كانت في الوضع العادي لجذبت ساقها على الفور بعيدًا، ولكنها وقد كانت تتقمص حالة ما قبل الموت بخطوة واحدة، لم يكن من الممكن لها فعل ذلك، ولذا استطاعت ستسكو على غير انتظار التمتع بشفاه الرجل تزحف بلا انقطاع فوق ساقها التي تشهد بنفسها لنفسها بجمالها، وهي في حالة عدم الحياء وكأنها قد ماتت مثلما حلمت بذلك من فترة طويلة مضت؛ أي الحالة التي تشبه عندما تكون وحيدة وعارية تمامًا بمفردها.

لم تستطع ستسكو أن تستمر في التظاهر بالموت طويلًا. أخيرًا وصلت حرارة اللحم حتى أطراف الأصابع التي كانت باردة، وعادت الحياة لستسكو فأصدرت صوتًا رفيعًا. لم تصدر ستسكو التي من عمق حيائها المولودة به (ولم يحدث في الأصل موقف يتسبب في خيانة ذلك الحياء العميق) صوتًا مثله ولو مرة واحدة أمام زوجها.

لقد قررت ألا تفكر في أي شيء. استمرت تلك الحالة حتى عودتها إلى منزلها. كما هي لا تفكر في أي شيء، ابتسمت لتسوتشيا بحكم العادة، لدرجة أنها في النهاية ضربت له موعد اللقاء التالي.

انتبهت ستسكو إلى خدعتها بعد أن عادت إلى البيت وصارت بمفردها. لقد كان تحذير يوشيكو المخلص صحيحًا. أيقظت ستسكو مرة أخرى ما كانت تعتقد أنه لم يتبقَّ منه في داخل جسدها إلا جذوة بسيطة وربطت الذاكرة مباشرة بعادات الماضي، وأثناء ذلك جعلت ما يفترض أنها تغلبت عليه وقهرته، هباء منبثًّا.

إن خوفنا من المستقبل كقاعدة عامة هو خوف ناتج من النظر إليه على ضوء تراكمات الماضي. تعلمت ستسكو أن الحب يصبح طليقًا حرًّا بالفعل عند الخروج من دائرة الذكريات حتى ولو للحظة واحدة. نحن نطلق باستخفاف على شعور الخوف من التكرار أنه مجرد الخوف من السقوط. لم يَعُد خوف ستسكو خوفًا من السقوط.

فجأة، برز ثانية إلى ذاكرتها وجه ذلك المعاق الشنيع الذي رأته في شوارع المدينة، الآن وقد أجهضت الطفل بالفعل، فليس من المفترض أن يكون ذلك الوجه الوحشي، الذي لا أنف له ولا حواجب المختبئ تحت الكمامة وقبعة اللباد، بذرةً لأي خوف على المدى البعيد، ولكن يوجد معنًى آخر لرعب ذلك الوجه.

تولَّد رعب ستسكو التي التقت فجأة بذلك الوجه في وضح النهار، من رسمها لأفكار ارتبطت بشكل ما بمستقبلها، حتى لو حول طفل يجب أن يولد، أو حول شيء آخر، والذي أمامها الآن شيء يختلف عن الرعب في النوع، بل هو نوع من الإعجاب العاطفي من المؤكد أنه سيتحول في النهاية إلى رعب يشبه كثيرًا اندفاع طفل يرى حشرة في الطريق، فرغم أنه يعلم أنه سينفجر بالبكاء في نهاية الأمر، ولكنه يحرص قبل ذلك أولًا على النظر بتمعن في تفاصيلها الدقيقة.

ويُعتقد أن ستسكو وقعت في أسر الرعب، وهي تحاول أن تحدد إلى أي درجة يمكن أن يصل تشوُّه وجه الإنسان بعد تحوله.

«إذا كان ذلك الوجه الشنيع، يمكن القول عنه يومًا ما في الماضي إنه وجه جميل مثل كل الناس وصار حطامًا بهذا الشكل. إذا كان هذا الوجه له نموذج أَوَّلي جميل بشكل مؤكد مثل بقية الناس .. آه، ألا يمكن أن يكون وجهي الآن بشكله الحالي، مجرد نموذج أَوَّلي؟»

الفصل السادس عشر

لقد اختفت الملامح العاطفية تمامًا من عشق ستسكو، وكذلك ملامح الشاعرية التي تكوِّن منبعًا لسرورها كامرأة. لقد فقدت كذلك ما يصبغه العشق من ظلال وبهجة على أجزاء من حياتها. تسلطت أشعة الشمس الساطعة المتلألئة بوضوح على كل شيء وملأتها بحوافَّ جلية واضحة لحد الرعب. لقد شعرت أنه لا يوجد شيء أكثر من بشاعة أشعة الشمس المضيئة في نهار يوم خريفي من تلك الأيام الأخيرة. تفوح الروائح والألوان وتتطاير. كانت مشاعرها تستعطف وتستجدي بلا توقف مثل مريض بلغ به الجوع مداه.

كانت تحاول النظر حولها باحثة عن مكان يمكن أن يستكين فيه قلبها ويرتاح، ثم وجدت مكانًا شبيهًا بذلك؛ حفلات الخريف الاجتماعية المتنوعة. يوجد حفل الحدائق الترفيهي حيث يتم إضاءة المشاعل ليلًا وإقامة ما يشبه المحلات التجارية في أرجاء الحديقة. توجد كذلك حفلات الرقص، ومآدب الطعام، وتوجد دعوات لعروض مسرحية، وتأتيها أيضًا دعوات متنوعة حتى داخل إطار علاقات أسرة والديها، ولكن عندما جرَّبت وذهبت لمرة واحدة فقط، عرَفت أنها إذا لم تذهب مع تسوتشيا؛ فلن تجد المتعة أينما تذهب.

بدأت ملامح وجه ستسكو الوافرة التعبير التي تقترب من ملامح الأطفال، تتشوَّه تدريجيًّا وبدت كما لو كانت تتحول إلى الجمود، والآن اختفت على الأغلب البراءة التي تتميز بها. ربما كان نسيانها صفة النفاق التي تميزها وأن أصبحَت مخلصة أكثر من اللازم في كل الأمور على العكس؛ هو سبب اختفاء تلك البراءة في الظل، وهي التي كانت تبدو وكأنها الأكثر إشعاعًا داخل الشهوانية.

أخيرًا لجأت ستسكو إلى الموسيقى لتنقذها، فذهبت بمفردها إلى حفل عزف موسيقي لعازف مشهور جاء لزيارة اليابان في ذلك الوقت، ولكنها بعد أن فعلت ذلك اندهشت رغم مرور كل هذا الوقت من قحط قوة الخيال لديها. فلم يَنسَب الصوت ولو قليلًا داخلها، بل

كان ينغرز كالأشواك في الأذن كما لو كان قطعًا من الزجاج، فلم تحصل على راحة القلب داخل الموسيقى، بل على العكس دفعتها الموسيقى بعيدًا محاولةً إرجاعها بقوة شديدة إلى القلق وعدم الأمان خارج عالم الموسيقى. أحيانًا ما تنساب بتلقائية قطعة موسيقية جميلة لترسَخ في القلب، ولكن ذلك لم يواسِها، ولكنه جعل أكثر ذكريات لديها والتي ترغب في عدم تذكرها هي التي تتدفق، بالضبط مثل الكلمات المعسولة المليئة بالسموم التي تظل تغازل الأذن دائمًا.

صارت ستسكو تشعر بالوحدة، رغم حبها ورغم أنها كانت تعتقد بترابط جسدها مع جسد تسوتشيا بعمق أكثر من أي وقت مضى. كانت وحدة واضحة جلية حقًّا؛ الوحدة التي من الطبيعي أن تشعر بها لو سارت في العلن وفي وضح النهار عارية تمامًا ولا تجد مكانًا تختفي فيه. تشعر أنه حتى المخابئ، والاستراحات، والزوايا الدافئة التي يستطيع فيها القلب الراحة ... تشعر أن كل تلك الأماكن قد انعدمت تمامًا من العالم.

ماذا عن كيكو؟ لقد أعطت ستسكو بالفعل لكيكو دور تأنيبها بالصمت. ربما كانت تلك لعبة ستسكو الخيالية بمفردها، ولكن هذه الأم الواقعة في براثن الوحدة كانت على الدوام تشتكي ذلك لطفلها بعينيها، حتى لو كان حديثها معه عن الحضانة، أو عن حديقة الحيوانات.

«يا كيكو! هل تغفر لوالدتك؟»

كان الطفل كيكو يبتسم فقط، ولكن داخل تلك العيون الصافية المبتسمة، كانت ستسكو تقرأ بلا انقطاع الجملة التالية: «لا، لن أغفر لكِ أبدًا!»

فترتعد ستسكو رعبًا، وفي نفس الوقت يطمئن قلبها.

«لو حدث أن قال هذا الطفل إنه يغفر لي، لا شك أنني سأقتله وقتها على الفور.»

إنه شيء عجيب، فلقد بدأت ستسكو تفكِّر. يتولَّد التفكير وتحليل الذات، وكل تلك الأمور بسبب الحاجة إليها. لقد فقدت ستسكو بالفعل، ثقتها المولودة معها في أنها تنتمي إلى قبيلة السعداء.

تشتعل مع كل لقاء غرامي فرحة الجسد أكثر وأكثر ومصاحبًا لذلك، انتبهت ستسكو أن أحاديث تسوتشيا تزداد فقرًا أكثر وأكثر، وأصبح في وضوح ظاهر للعالم، وكأنه يحمل وجهًا بلا مشاعر على الإطلاق، أو يُظهر حالة من اللامبالاة التامة وغياب الوعي. هل تغير تسوتشيا إلى هذا الحد؟ من المفترض أن ستسكو انتبهت أكثر من مرة عندما كانا لا زالا في بداية حبهما، أن تسوتشيا كان أثناء صمته، يبدو في حالة من الملل التام بدون أن يراعي

مشاعر أحد، بل ورغم أن نفس حالة الملل تلك، كانت السبب في ذلك الوقت في جعلها تطمئن؛ إلا أنها الآن هي سبب معاناتها.

يصمت تسوتشيا، وفي نفس وقت صمته تنشط مؤخرًا قوة خيال ستسكو كأنها إبَر تنغز فيها، وعندما انتبهت كانت قد احتوتها الغيرة بالفعل، ولأنها لا تتحمل نفسها على تلك الحالة، أصبحت عادتها الدائمة هي إخفاء غيرتها، ولكن انتبهت ستسكو أيضًا إلى أن إخفاء غيرتها والابتسام بشكل مفتعل، لا يختلف عن سلوك العبيد، ومع تنبهها لذلك لم يكن في وسعها القيام بأي فعل حيال ذلك.

ومرة أخرى يصمت تسوتشيا. تحكي ستسكو بصوت أجوف عن حكاية مشوقة وممتعة بحثت عنها بتسرع ولهفة، ولكن مع نبرة صوتها المأساوية تلك، لا تُسمع أي حكاية بشكل ممتع حتى لو كانت مشوقة وممتعة، وفي بعض الأحيان يبتسم تسوتشيا ابتسامة خفيفة ويقول ما يلي: «لقد سمعت هذه القصة من قبل بالفعل.»

يكره هذا الفتى الغِر بذل مجهود في التلطف مع الآخر وسماع نفس الحكاية مرتين.

ظلت ستسكو في وقت الإفطار من صباح أحد الأيام، تحملق في تفاصيل وجه زوجها باهتمام. كانت تعتقد أن زوجها قد أصبح يحمل صفة الغريب تمامًا عنها، فقط لأنه لا يتحمل مناصفة معها عبء الأحمال إلى هذه الدرجة ولا يشاركها الآلام الشديدة إلى تلك الدرجة التي سقطت فيها، ولكن فكرة أنه غريب عنها جعلت هناك ألفة من نوع آخر تنبعث منطلقة، مما جعل ستسكو تعاني من رغبة مغرية وخطرة أن تبوح له بكل شيء في أريحية وتفانٍ، ورغم قول ذلك، ففي أعماق قلبها، تريد أن تحتفظ بمعاناة ودهشة زوجها الشديدةً عندما يعرف بكل شيء، كآخر حلم لها؛ لأنها عند النظر إلى حالة معاناة الفكر تلك ربما تكتشف ستسكو التي ليس لها حتى الآن من يحنو عليها، ربما تكتشف في زوجها صديقًا مخلص القلب بشكل غير متوقع؛ لأنه ربما ترى فيه ذلك الشخص الوحيد في العالم الذي يتألم ويعاني من أجلها.

ولكنها كانت تشكُّ هل زوجها النائم على الدوام لا يزال يتبقى في داخله قدرة على المعاناة حتى لو كان له عشيقة، فلا جدال في أنه قد اختار من البداية عشيقة لا خوف من أن تسبب له أية معاناة. كان زوجها بشكل عام إنسانًا دافئ المشاعر بشدة، ولكن على العكس حالَ دفء المشاعر هذا بينه وبين كل أنواع رهافة الإحساس. كان ينام قرير العين خالي البال في مكان ما لا تصل إليه العاطفة البشرية مطلقًا.

أحيانًا ما تتخيل ستسكو لحظة علمها أن زوجها في الواقع كان مدركًا لكل شيء، ولكنه بسبب ضعف شخصيته أو ربما بسبب الكسل، أو ربما بسبب خبثه، ظل صامتًا.

تعرف ستسكو حالات مثل ذلك. بل وتعرف حالات أكثر من ذلك مأساوية، وأكثر من ذلك سوءًا. تعرف أحد الأزواج، كان سمين الجسم بليد الحس، طيب القلب، في الغالب يُحب زوجته حبًّا حارًّا، لم ينتبه ولو قليلًا إلى خيانة زوجته، وظل كما هو لا يدري، ولكنه على الأرجح ظل في اللاوعي يتحمل صابرًا، وفي النهاية صرخ الجسد عاليًا تجاه قدرة تحمل الجسد بهذا الشكل، وبدأ يُنهك مع مرور الأيام ويصل في النهاية إلى الضعف، ثم مات منذ عدة أشهر بمرض يمكن توقعه. بل لم يُظهر، وهو على مشارف الموت، أي شك أو ارتياب ناحية زوجته.

اعتقدت ستسكو، على العكس وبشيء من التمني، أنه من المستحيل أن يكون زوجها هكذا، ولكن لو كان قد انتبه إلى كل شيء ولا يُحس بأي معاناة؛ فلسوف ينهار الحلم الوحيد والإنقاذ الوحيد الذي ترتكِن عليه ستسكو هنا.

تفكر ستسكو في حالة ما إذا فقدت تسوتشيا؛ لا يوجد أمامها إلا العودة إلى هذا البيت حيث يوجد زوجها وابنها. إذا حدث ذلك، فكيف سيستقبلها زوجها يا تُرى؟ وقتها بالذات ربما يرفضها زوجها هذا الذي لا يطلب أي شيء. ربما سيصبح عليهما العيش معًا تحت سقف واحد كزوجين كل منهما يحمل روحًا وجسدًا منفصلَين.

انتفض قلبها رعبًا من الوحدة، ولذا في إحدى الليالي قامت ستسكو بالتقرب لزوجها. كانت تحاول التأكد من مكانٍ تعود إليه، إذا ما تحتَّم عليها العودة.

فتح زوجها الذي كان على وشك النوم، فجأة عينيه على اتساعهما. كانت عيناه تقولان: «ماذا حدث لكِ بالضبط؟» ثم نطق فمه بالتفصيل: «أمر غريب! ألم أصبِح مكروهًا لك منذ زمن بعيد؟»

يبدو أنه قد فقدَ بشكلٍ ما ثقته في نفسه، ويبدو أنه ظل في الفترة الماضية يواصل النوم دون أن يحاول ولو غصبًا استعادة ثقته في نفسه التي فقدها إلى عنفوانها.

لم تُجب ستسكو تجاه ذلك السؤال الغبي المباشر بالكلمات بل بالابتسام. كان كتفها ظاهرًا من قميص نومها ذي اللون الأزرق الفاتح. لم يسبق لستسكو أن حاولت أن تكون مثل العاهرات كما حاولت بشدة في تلك اللحظة. يجب أن تكون عاهرة بلا أي عيب، ثم بدون أن تغرق في أية عاطفة ولو قليلة، يجب أن تستحث فقط ما في زوجها من عناصر ذكورية خالصة.

تشع رطوبة أطراف عيونها النصف مفتوحة، لمعانًا من خلال ضوء مصباح الفراش، وكانت الرموش عميقة للغاية، كانت بدون حركة تقيس المسافة بين جسدها وجسد زوجها في الوقت الحالي.

سحب الزوج يد ستسكو بحنان، ثم مد يده بشيء من الخوف فوق هذا الجسد الذي لا يعلم إلى أي مدى تملؤه أفكار بلا حياء.

وأخيرًا تغلبت ستسكو على درجة أخرى من درجات الحياء، فقد أصدرت تأوهات كاذبة بصوت عالٍ، وأظهر زوجها بوادر دهشته من تلك الحالة التي يواجهها للمرة الأولى، ثم رفع من حرارته بشكل صادق وحقيقي وأصبح يجتهد ويجدُّ في مداعبتها ولمسها.

يبدو أن زوجها لم ينسَ طعم تلك الليلة، فبدأ اجتهاده الذي لم تكن تتوقعه، وإذا استمر ذلك في المستقبل القريب مرتين أو ثلاث مرات فعندها لن تقدر ستسكو أن تستمر في لعب دور العاهرة إلى الأبد، لم تعُد قادرة أو راغبة في إصدار التأوهات الكاذبة، وبهذا الشكل عادت ستسكو إلى طبيعتها الدائمة، وهدأ تردد الموجات .. واختفت تلك العادة الجديدة الغريبة.

لم يزِد الأمر عن أن ستسكو حصلت بصعوبة على بعض ملامح من سلوك العاهرات. يتردد صدى الصوت ثم يختفي في الهواء. المقارنة قد أصبحت واضحة بالفعل، ووضعها وسط مثل تلك البيئة التي بلا مشاعر، وعندما تتذكر موعدها مع تسوتشيا في الغد يرتعش جسدها.

بدأت بوادر قدوم الشتاء. كانت ستسكو ترغب في الذهاب مرة أخرى إلى أماكن اللقاءات التي ذهبا إليها معًا في الصيف؛ لذا توجها معًا في الظهيرة إلى ذلك الفندق الذي يبعد عن طوكيو بمقدار ساعة سفر، بدون أن يحملا معهما أية أمتعة. لا يوجد ظل إنسان على الشاطئ، وكانا هما الاثنان نزلاء الفندق الوحيدين. كان الجو باردًا أثناء التنزه على الشاطئ. كانت الطائرة التي تطير خلف الغيوم الكثيفة، ذات صوت موتور يتردد صداه شاحبًا وخفيفًا، ويُسمع في كل أرجاء الشاطئ الخالي من الناس. شاهد الاثنان خيوط شمس الغروب في البحر تغطيها الغيوم جميعها، تحت الغيوم السوداء، وهي تنبعث عرضيًّا ملامسة خط الأفق.

قضيا حوالي خمس ساعات في غرفة الفندق ثم عادا معًا في آخر قطار متجه إلى طوكيو.

من اليوم التالي بدا وكأن الشتاء حصل على دفعة فجائية، في تلك الليلة وفي وقت متأخر، هبَّت الرياح الشمالية بعنف، وزاد برد الصباح بصفة خاصة.

بحثت ستسكو عن شخص تعتمد عليه. شخص ما ليس له علاقة بالأمر وفي نفس الوقت تستطيع الوثوق به لتبوح له بالأمر، لكي تأخذ منه نصيحة، حتى لو لم تصل معها

إلى حل واقعي، فعلى الأقل تساعدها على تحديد وجهة قلبها. لا تفِي يوشيكو بالغرض. ما تبحث عنه ستسكو الآن ليس نصيحة شخص خبير في خبايا المجتمع المخملي، ولكنها تريد تجربة وخبرة أكثر صرامة وأخلاقية. تريد أفكارًا أكثر قوة، تزلزل كيانها ووجودها ذاته، وليس مجرد تعلُّم طرق المساومات في الغرام؛ فهي تعتقد أنها إذا لم تحصل على فرصة مقابلة مثل هذا الشخص وتتكئ عليه، فسيتفكك قلبها ويهرول ناحية التلاشي والاندثار مرة واحدة.

تذكرت ستسكو صديقة قديمة جادة الشخصية، تلك الصديقة لديها الكثير من المعاناة، وتذكرت اسم أحد الأشخاص متقدم في العمر تذهب الصديقة تلك إليه أحيانًا كثيرة لكي تبوح له بما تعانيه. العجوز الذي يسمى ماتسوكي، له عدد من المؤلفات المشهورة لدى الناس، ولكنه منذ وقت بعيد مضى يعيش منعزلًا في منطقة يصعب الوصول إليها في ضاحية من ضواحي طوكيو، ومعه خادمة عجوز. يعيش كما لو كان مثل الإنسان الأبدي «سِن نين» في الأساطير القديمة ولكنه كان في شبابه قد قضى بضعة عشر عامًا هائمًا مترحلًا في بلاد أوروبا وأمريكا، ويعلم أسرار وخبايا العديد من البلاد. وقتها كان ماتسوكي له علاقة بالسياسة أيضًا، ولكنه في النهاية ترك العمل السياسي. وتعرف على أنواع عديدة من النساء في جميع أنحاء العالم، ثم أخيرًا استغنى عن النساء، وفي الفترة الأخيرة ابتعد عن الكتابة كذلك، ويعيش بتواضع في كنف ثروته التي تجمَّعت له من حيث لا يحتسب.

لقد كان أيضًا له خبرة وعلم حتى بعالم الجريمة ذاته! فلقد ركب في مرة سفينة قراصنة في بحر جنوب الصين، وحدث أن شارك مرة في عمليات تهريب، واشترك مرة في اكتشاف أماكن نائية وخطرة، وتعرَّض مرات عديدة في حياته لمخاطر السجن أو الموت، ويحتقر ماتسوكي الآن أي عمل من أعمال الجريمة مهما عظُم شأنه.

طلبت ستسكو من صديقتها القديمة كتابة خطاب تعارف لماتسوكي وطلبت موعدًا لزيارته، وزارته حاملة في يدها هدية في ظهيرة أحد الأيام الباردة التي تتسلل فيها أشعة باهتة للشمس. من محطة صغيرة لقطار في ضواحي طوكيو، سارت لفترة وسط حقول البصل. أخيرًا ظهر طريق صاعد لهضبة. أثناء السير داخل غابة لأشجار الصنوبر الحمراء تضيء أشعة شمس خفيفة بقعًا في سطحها، بيت من بعيد يحيط به سور قديم. هذا البيت هو بيت ماتسوكي. كانت مسافة الطريق من محطة القطار حوالي فرسخًا، ولكنها عندما فكرت أن انعزال المكان إلى هذا الحد، يجعله بيئة مناسبة تمامًا لحديث البوح بأسرار القلب، زالت كل متاعبها.

كان ماتسوكي نائمًا، ولكن بعد وصول ستسكو إلى جوار وسادته، نهض ليجلس على سريره. اندهشت ستسكو عندما وجدت أن الرجل الذي عاش حياة مليئة بالتجارب والتقلبات إلى هذا الحد ضعيف البنية نحيف الجسم قصير القامة إلى هذه الدرجة، وعندما قالت له لم أكن أعلم أنك على فراش المرض، قال الرجل العجوز إذا لم يعالجني طبيب فلا يجب تسمية ذلك مرضًا، وأنا لن أعرض نفسي على طبيب أبدًا. انجذبت ستسكو لقوة وشجاعة وشباب ذلك الصوت. حكت اعترافاتها بيسر وسلاسة. قال ماتسوكي: «ذلك أمر مزعج فعلًا .. إنه حقًّا أمر مزعج .. شخص مثلكِ من المفترض أن يعيش حياة سعيدة رائعة بلا أي منغصات ولا معاناة، أيكون مصيره هو المعاناة بهذا الشكل؟ إنه لأمر مزعج حقيقة.

هذا الشخص الذي يُسمى تسوتشيا هو الآن على الأرجح لا يحبك، ولكن في هذا العالم أقوى الناس قدرةً إنسانٌ لا يحب؛ فمثل هذا الإنسان لا توجد طريقة للتعامل معه، بل وأنت أخذت فقط من هذا الشخص علامات الحب. صار هذا الرجل يتصرف معك بكل قوته، وليس له اهتمام إلا بتجريب تأثير هذه القوة فقط. إذا أخذنا إذَن كل أفعال الجسد على أنها أكاذيب فسيكون الأمر سهلًا، ولكن إذا تحوَّل ذلك إلى عادة، فالعادة لا يوجد فيها كذب ولا صدق. إن الذي يستطيع التفوق على الروح وقهرها هو ذلك الوحش المسمى «العادة». لقد أصبحتِ أنتِ وعشيقك طُعمًا لذلك الوحش، ولكن هذا أمر لا يجب الخجل منه في حياة البشر؛ فليس بالضرورة أن تكوني أنت الخاسرة، وليس بالضرورة أن يكون الرجل هو الفائز.

لنفكر في الأمر بعد إبعاد قضية الحب. سأعلِّمكِ طريقة علاج تلك العادة.

آه يا سيدة كوراقوشي، تكون غرائز البشر في الأصل بخيلة. في الحقيقة المفروض أنكِ بالفعل قد شُفيتِ من الغريزة. لقد شفيتُ منها أنا في بدايات شبابي الأول، أما باقي حياتي فقد كنتُ أعيشُ فقط هاربًا من العادة. وعندما علمتُ أن الإنجازات العظيمة التي حققها البشر، كلها — مثلي تمامًا — تشير إلى ظلال الهروب، أحسستُ بالتقزز من ذلك. الهروب إلى العمل التجاري، الهروب إلى السياسة، الهروب إلى المجد. إن ذلك هو الذي كان سندًا للتاريخ حتى الآن.

آه .. أجل .. كان من المفروض أن أعلِّمكِ طريقة العلاج من العادة، ولكن ذلك أمر في غاية الصعوبة. من يعيش الحياة كائنًا حيًّا، لا يقدر على الاستغناء عن عادة الطعام على أقل تقدير، ولذا فالأمر في منتهى الصعوبة، وهنا أعتقد أنا أن الإنسان بدأ يفكر في الأخلاق.

ربما تضحكين إذا سمعتِ أنني أنا الذي خبر طريق الفسوق حتى منتهاه، أتلفظ بكلمة الأخلاق، ولكن ما أشير إليه أنا بالأخلاق يختلف قليلًا عما يقصده الناس بالأخلاق. إنها القفص الذي يخدع به الإنسان نفسه لكيلا يستطيع الهرب إلى أي مكان من أجل ألا يستطيع الهرب حتى من أكثر العادات رعبًا.

حذار من القفز إلى النتائج يا سيدة كوراقوشي؛ فأنا لا أنصحكِ، كما ينصح الناس المريض بالتعايش مع مرضه، لا أنصحكِ بمصاحبة العادة والعيش معها في ود؛ فالأخلاق لا تعترف بالهروب من العادات، ولكن في نفس الوقت الأخلاق لا تعترف أيضًا بالهروب إلى العادات أكثر من ذلك؛ فالأخلاق هي عبارة عن إغلاق الدائرة المفرغة الشريرة بين البشر وبين العالم، هي عبارة عن قوة تحاول أن تجعل كل الأشياء وكل اللحظات هي مرة واحدة فقط لا يمكن تكرارها للأبد. القفص يكون بعد رقم اثنين، ولكن لأن الإنسان خُلق ضعيفًا، فمن أجل أن يمتلك تلك القوة، فالقفص ضروري على أي الأحوال، ولكن المجتمع ينظر فقط إلى ذلك القفص ويعتقد أن الاسم الآخر للقفص هو الأخلاق.

يجب جعل كل لحظة من لحظات العادة تكون مرة واحدة فقط، آه يا سيدة كوراقوشي، أنا لا أُلقي إليك بمعضلة بكلامي هذا، ولكن هذا العالم مستمر إلى ما لا نهاية، فلليوم غد، وللغد بعد غد، وهكذا يستمر إلى الأبد، بعد الصحو تأتي الأمطار، وبعد الأمطار تتألق الشمس ساطعة. من الأهمية بمكان إعطاء ظهركِ بالكامل إلى القوانين المادية للطبيعة تلك. مع اعتياده على قوانين الطبيعة وتحوُّل عينه معها ينسى الإنسان كونه إنسانًا فيصبح إما عبدًا لعادته، أو ملك الهروب. الطبيعة تتكرر مرة ومرات. الإنسان هو الوحيد صاحب امتياز المرة الواحدة فقط. ألا تعتقدين في ذلك يا سيدة كوراقوشي؟

إن أخلاقي لا تنصحكِ بالعودة إلى بيتك وأسرتك. على العكس إذا فعلتِ ما أقوله لكِ، لربما تكتشفين المتعة بإيجابية منك في جسد ذلك الرجل الذي يسمى تسوتشيا؛ فالمتعة بالتأكيد شيء رائع يجب استنشاقها وتذوقها كما يحلو لك. ربما تقولين إنك قد عرَفتِ بالفعل تلك المتعة، ولكن المتعة التي يُخشى معها من الغد هي متعة زائفة، يجب الخجل منها، أليس كذلك؟

إذا قمتِ باكتشاف المتعة بشكل إيجابي منكِ بعد ذلك ستستطيعين الحكم بحرية تامة هل تستمرين في امتلاكها أو الاستغناء عنها. إن فكرة الهروب من العادة هي فكرة كئيبة سوداء، ويبدو أنني أحتقر البشر ولكن الرغبة في الاستغناء عن المتعة تغازل كرامة الشخص، ولذا من السهل أن يتقبلها كبرياؤه. إنه كذلك يا سيدة كوراقوشي.

لذا أنا أنصحكِ باستخدام الأخلاق، وإذا كانت الأخلاق كلمة سيئة، أنصحكِ باستخدام قوة أخرى وليدة تضعه في مأزق أكثر وأكثر. هذا هو ما أريد قوله لك.»

بعد أن انتهى ماتسوكي من قول ذلك، أسلم رأسه إلى الوسادة، ثم أخيرًا ذهب في نعاس حقيقي. ظلت ستسكو غارقة في الأفكار وهي جالسة بجوار تلك الوسادة حتى غروب الشمس، تتأمل بلا حراك، وجه ماتسوكي النحيف النائم. ما علَّمني إياه هذا الرجل هو بالطبع أفكار رجل، ولكن ما أحتاجه أنا الآن هي أفكار امرأة.

الفصل السابع عشر

منذ ذلك الحين، سببَت تحركات ستسكو ومزاجها المتقلب الرعبَ مرات كثيرة لتسوتشيا، وكانت ستسكو نفسها تعلم ذلك جيدًا، ولكن لم يُظهر هذا الفتى المتعقل أي رد فعل على ذلك، بل فقط ظلَّ حليمًا معها على الدوام، ولأنه ذو تربية عالية فمن غير المفترض أن يصدر منه أي تصرف عنيف تجاه امرأة، ولكنه على الأرجح يتحمَّل ويصبر على كل شيء، ويؤدي فقط ما عليه من واجب جسدي بجد واجتهاد، ولكنه ربما قد تعلَّم في السابق من امرأة ما تكبره سنًّا من خلال علاقة غرامية معها، أن يُظهر أثناء ذلك، للمرأة موقفًا يحثها على الابتعاد عنه من خلال عينيه وخدوده الصامتة وجسده المرهق.

ولم تكن ستسكو غير واعية بذلك، ولكن مع وعيها لذلك، كان جسد هذا الرجل الراقد أمامها يجعلها تُحس فجأة بجاذبية شهوانية تحتلُّ قلبها بأكمله. ذلك الصدر المغمور نصفه تقريبًا في الظل بسبب سوء الإضاءة عند المنطقة المظلمة للوسادة، وذلك الخصر، مجرد وجوده فقط بجانبها يجعلها تعتقد أنها لا يمكن أن تستغني عن ذلك الوجود.

«شيء جيد. ألستَ متعجلًا؟ سأتركك ترحل!»

كانت ستسكو بهذه الطريقة في القول، تمسك بأصابعها شعر إبطه الذي يطلق رائحة مُسكرة معتمة وبدا وكأنه نبات بقدونس على حافة البحر ليلًا، وتشدُّه وكأنها تريد نزعه نتفًا، مما جعله ينتفض من الألم، ولكن ذلك لم يأتِ بنتيجة معها، إذ قالت إنها تريد أن تأخذ ذلك الشعر معها إلى منزلها.

هل كان ذلك يا تُرى سبب كره تسوتشيا لها؟ لا للأسف لم يكن الأمر كذلك. كانت ستسكو مندفعة تمامًا في تصرفها ذلك، وفي نفس الوقت تفعل ذلك بإحساس صريح، ولكن تسوتشيا من جانبه كان مع شعوره جزئيًّا بالانزعاج، إلا أنه من جهة أخرى يبدو عليه أنه يستمتع في قلبه سرًّا من هذا السلوك الجديد لستسكو. كان على الأرجح يستمتع بأن

المرأة التي لم يعُد لديه عاطفة محمومة تجاهها تعامله بهذه الطريقة. التمتع بأن امرأة لم يعُد يحبها تُعامِله بهذا الشكل الذي يمتلئ بالرغبة الجسدية العاصفة، كان على الأرجح قد اكتشف في ذلك متعة تجريدية جديدة عليه.

كانت ستسكو تُحس بعدم اكتفاء قلبها بدرس ماتسوكي السريع، ولكن شخصية ذلك العجوز المنعزل، ظلت في قلبها طويلًا؟

«إلى هذه الدرجة يمكن للرجل أن يصبح وحيدًا؟ وحدة المرأة تختلف. وحدة المرأة العجوز مهما كانت، فهي أكثر «زفارة»، وتبدو راغبة أكثر في الأشياء. مهما وقعت المرأة في الوحدة، فهي لا تقدر على العيش في عالم آخر، ولا تستطيع الإقلاع عن وجودها كامرأة؛ فهي تختلف عن الرجل الذي يذهب إلى ذلك المدى. الرجل إذا طار مرة إلى منطقة الروحانيات العالية، فهو يستطيع بسهولة أن يستغني عن الوجود!»

وعندها عادت أفكار ستسكو إلى أصلها مرة أخرى، وصارت تعتقد أنها ترغب في الاعتماد على دروس مجتمعية خالصة لسيدة عجوز تقدر على الفهم وتكون لها خبرة عريضة في هذه الحياة، وحتى لو كان ذلك بعيدًا تمامًا عما تُحس به ستسكو في قلبها الآن، ولكنها أحست أن ذلك الشيء البعيد عنها سيكون على العكس فيه علاج ومواساة لقلبها.

وقد تم اختيار سيدة عجوز كانت في الأصل من مجتمع الجيشا في عصر ميجي وأصبحَت الآن أرملة أحد أقطاب السياسة الكبار. ذهبت ستسكو للقائها بدون الإفصاح عن هويتها بعد توسط صديقة. قالت لها السيدة العجوز ما يلي دون أن تغيب ابتسامة دائمة عن ثغرها: «مثل هذه الحكاية ليست نادرة على الإطلاق. لن أفصح عن أسمائهن ولكن سيدات المجتمع الحالي يأتين لأخذ آرائي مرات عديدة، ولحسن الحظ يسمعن ما أقوله لهن، والآن صِرن جميعهن بلا استثناء يعشن في جو أسري مليء بالسعادة أكثر من ذي قبل.

أنا أرى أن المرأة يجب أن تقع في تلك التجربة ولو مرة، والسبب هو أن الزوج والرجل شيئان مختلفان، وعدم معرفة من الرجال إلا الزوج فقط طوال العمر، يجعلنا لا نستطيع الهرب من مصير أن تصبح معرفتنا عن الرجال غير كاملة. مهما كان الزوج أنانيًّا، ومهما كان باردًا، ففي النهاية سيكون زوجًا أنانيًّا أو زوجًا باردًا، وهناك مسافة واسعة بين ذلك وبين الرجل الأناني والرجل البارد.

ولقد فعلتِ حسنًا يا سيدتي؛ فأول رجل تقعُ المرأة فريسة الانبهار به والغرام به، هو أكثر الرجال صعوبة في التعامل معه، ولستِ وحيدة في ذلك الأمر، بل الجميع يفعلن ذلك، وبفضل ذلك نصير نحن البشر أكثر معرفة لعيوبنا، وأفضل دراية بما ينقصنا كبشر.

لا يمكن للمرأة أن تكون مرآة للمرأة، ولكن دائمًا الرجال هم من يتبرعون ليكونوا مرايا للمرأة، ويكون هؤلاء هم الرجال الباردين.

ولكن يا سيدتي انهزام المرأة أمام العاطفة، في النهاية هو السلاح الأخير الذي تملكه المرأة. لا يجب مقاومة العاطفة، وبالطبع لا يجب تحكيم العقل عندما تنهزمين أمام العاطفة وتغرقين فيها حتى الظن أنه لا مفرَّ آخر إلا الموت، هنا ينبع لدى المرأة لأول مرة ما يسمى الحكمة. فالجميع يعلم أنه عندما يحدث حريق أو زلزال تجد الرجل يتبلبل فكره وتتملكه الحيرة ويكون في حالة يرثى لها، في حين تكون المرأة هادئة راسية يُعتمد عليها.

ولكن ما أريد قوله لكِ، هو أنه يجب عليكِ جعل المجتمع في صفك حتى النهاية، فيقال إنه في حالة حدوث أي حادثة يأخذ المجتمع جانب الرجل ويدافع عنه وينتقد المرأة فقط في ظلم واضح لها. يقال هذا بالفعل ولكني لا أعتقد ذلك؛ فالمرأة هي التي يسهل عليها جدًّا جعل المجتمع يأخذ جانبها، ولكنها الصدفة التي تجعلها تُظهر إخلاصها لرجل، وتعادي المجتمع فتكون النتيجة أن تلحق الخسارة بالمرأة، ولا مفرَّ من القول إن امرأة من هذا النوع هي امرأة غبية؛ أي نعم نحن نعلم أن المجتمع غير متسامح مع الخيانة، والسبب هو أن المجتمع يحمل دائمًا اهتمامًا أكثر مما ينبغي للأمور اللاأخلاقية، ولذا عندما تظهر على سطح المجتمع قضية منها، يحتار المجتمع ويعتقد أن تم إهانته وجرح حيائه.

وفيما يتعلق بالعشق والغرام، يكون الرجل بحق كثير الكلام والحديث بشكل لا حيلة إزاءه، وبفضل ذلك وعلى العكس يثق المجتمع في اعترافات الرجل ويصدقها، ولكن الشيء الذي يجب الخوف منه بالدرجة الأولى هو الحديث الخافت السري بين النساء، فالمرأة لا تحترم معاناة امرأة أخرى، فمهما كانت شدة وألم معاناتك تستخدمها النساء لجلب الضحك والمرح. بالإضافة إلى ذلك يا سيدي، أن المرأة مع تعاطفها مع امرأة هزمها العشق؛ إلا إنها تحب بشدة نشر وإفشاء أمر تلك المرأة المهزومة، ومن جهة أخرى، المرأة الفائزة في الحب على الدوام يتم وضعها فقط في خانة «المرأة العديمة الأخلاق»؛ بمعنى أن الفائزة ينتهي أمرها بكلمة تجريدية واحدة هي العار، أما العار الشامل الذي يحوي كل التفاصيل بشكل فعلي وحقيقي، فللأسف تعاني منه فقط المرأة المنهزمة التعيسة، ولذا فالخطر من الدرجة الأولى هو انتشار شائعة وقوفك أنت في الجانب الخاسر من العلاقة الغرامية، يجب عليك عند الفراق مع ذلك الرجل أن يكون الفراق بشكل أنك أنتِ التي تركتِه وألقيتِ به وراء ظهرك. إذا فعلتِ ذلك سينتهي الأمر بالحد الأدنى من جرح كبرياء وكرامة السيد زوجكِ، بل وربما يكون ذلك سببًا في سعادتكِ أنت.

يتطلب جعل المجتمع يأخذ صفكِ يا سيدتي، ألا تطلبي من المجتمع دموع التعاطف والرثاء أبدًا. طريقة التعامل هذه مع المجتمع نجيدها نحن النساء جيدًا أكثر من الرجال لتعوُّدنا التعامل دائمًا مع النساء. فالرجال يحاولون استخدام القوة في إخضاع المجتمع، ولكن بعد ذلك نجدهم يجثون على ركبهم طلبًا لتعاطف المجتمع، يا لها من طريقة تعامل لا يوجد بها مهارة أو مرونة!

سيدتي، لا يكون في نيتكِ إخفاء المعاناة، ولا يكون في نيتكِ تحمُّل المعاناة، ولكن يجب أن تكون نيتكِ هي الحفاظ على السر بسهولة؛ فالأسرار في أصلها شيء ممتع وترغب في صبغ كل شيء بنفس اللون، سواء كان ألمًا ومعاناة أم كان فرحًا وسرورًا، ولذا يمكن للمرأة أن تفشي أسرار الدولة بلا أي مبالاة، ولكن حفاظها على أسرارها وإخفاءها لها ليس بالأمر الصعب على المرأة مطلقًا.

ثم بعد ذلك لا يجب عليك يا سيدتي أن تُكنِّي أي احتقار أبدًا للرجل شريكك؛ فمحاولة الهرب من الحب باحتقار الطرف الآخر ولو بإجبار النفس على ذلك، بسبب التألم والعذاب من الوقوع في هواه أكثر مما ينبغي، هي طريقة بدائية خرقاء، ولا تنجح أبدًا ولا حتى بنسبة مرة في كل عشرة آلاف مرة؛ فاحرصي على الدوام على أن توقري وتحترمي ذلك الرجل، ومهما فعل الرجل من أفعال دنيئة، احرصي على العكس أن تحترميه أكثر. لو فعلتِ ذلك سيبدو في التوِّ والحال ذلك الرجل إنسانًا مملًّا في نظرك، ولو حدث ذلك، ستكون عملية الهرب منه في غاية السهولة.»

كانت تلك نظرية ممتعة للغاية، ولكن التأثير الذي أعطته دروس تلك التجربة لستسكو كانت على العكس تمامًا، فقد رأت ستسكو أن كل ما أوصتها السيدة العجوز بفعله غير ممكن إلا في حالة عدم وجود الحب تمامًا. كان يوجد في قلب ستسكو التي اعتقدَت ذلك وعي يشبه الوعي الذي يتميز به المريض. كانت تسمع ذلك بوعي تملؤه الغطرسة مثل المريض الذي يسمع الآن بعد مرضه وصفات سحرية للوقاية من المرض.

ولكن عندما تكون أعمى فمن السهل إنقاذك، ولكن الخطر حقًّا هو عندما يبدأ الوعي بالعمى يتكون داخلنا، ويبدأ استخدامه كدرع يحمينا. أفكار ستسكو كانت أنها تتحرك في الأوقات الأخيرة، على أن الأصل هو عماها. فهي قد وقعت في الحب وبسبب ذلك أصابها العمى، والنتيجة أن لها الحق في أن تغمض عينيها عن أي شيء وكل شيء، هكذا كان الأمر بالنسبة لها.

وكان ذلك قد أصبح أمرًا مؤكدًا، حتى ولو تعرقلت في حجر يوجد في وسط الطريق وسقطت على الأرض، فمن المؤكد أنها ليست المخطئة، ولكن الذنب كله ذنب الحب فقط وحصرًا.

جاء الشتاء وأخرجت ملابس الشتاء التي تم تخزينها لفترة طويلة. أخرجت البطاطين. أخرجت القُفازات، وأخرجت المعاطف. وكان هناك حنين لملمس البطاطين على البشرة، واشتياق لرائحة قماش صوف الألبكا التي تنبعث بجانب نار التدفئة.

ولكن عندما ترتدي ملابس العام الماضي، أحسَّت على نحو ما أنها أكبر حجمًا. شعرت أن ما حول الخصر واسع أكثر من اللازم. لم تأبه ستسكو لذلك كثيرًا، ولكنها لكي تلحق بموضة هذا الشتاء، صنعت عددًا من الملابس الجديدة في محل حياكة غربي الطراز، وعندما حان الوقت لكي تضبط الحجم بخيط مؤقت قالت لها الحائكة: «سيدتي، لقد نحفتِ بدرجة كبيرة، وخصرك أصبح أرفع مما كان.»

هذه الملاحظة لو كانت السيدة التي سمعتها تعاني من السمنة المفرطة، إلى أي درجة كانت سعدت بها يا ترى؟ ولكن ستسكو من الأصل وخصرها رفيع، ومقياس جسدها كان على العكس مثاليًّا. عندما سمعت ذلك صمتت ولم تُجب.

كانت تفكر أثناء طريق العودة إلى منزلها، في حقيقة أنها قد نقص وزنها وأصابها خوف من الوقوف على ميزان الوزن الذي يوجد في حمام منزلها منذ ذلك الوقت. وعندما تنظر إلى وجود ألم صدري يصيبها بعض الأحيان، تعتقد أن قلبها الذي وُلدت به ضعيفًا صار أكثر ضعفًا. ولكنها لم تذهب إلى الطبيب من أجل هذا السبب. بل كان ممتعًا أن تردد وتكرر لنفسها قول لقد نحِفت .. لقد نحِفت. بل على العكس كانت تتمنى أن تظل تنحَف وتنحَف حتى تتلاشى .. لقد كانت سعيدة عندما عرفت أن العبء النفسي فقط ليس كافيًا بل ها هي تدفع بوضوح الثمن جسديًّا.

في ذلك الوقت ارتدت ستسكو لأول مرة رداء الحفلات الذي صنعته وقتها، وذهبت لتناول الطعام مع تسوتشيا في مقصورة مطعم تطل على ضفاف نهر. كان مزاج تسوتشيا يومها جيدًا. كان تسوتشيا على الأرجح لديه ذوق طفولي في أن يصطحب امرأة بملابس فاخرة كما هي بملابسها إلى غرفة النوم. لأنه قد أخذ وقتًا طويلًا وقام بخلع ملابسها ببطء بيديه بعد غياب طويل.

في أحد الأيام جاء اتصال هاتفي مفاجئ من إيدا، وسألها هل يمكن أن يزورها في منزلها الآن. وافقت ستسكو، فجاء على الفور.

عندما رأت وجهه عند بهو الدخول وقد تحول لونه إلى لون أزرق غامق، شعرت ستسكو على الفور بفأل سيئ، ولكنه قال إن لديه معها حديثًا جادًّا وخطيرًا ودخل مباشرة إلى غرفة الضيوف، وجلس منزويًا على مقعد في أحد الأركان.

لم يكُن موضوع الحديث بهذا التعقيد. لقد أصبحت يوشيكو باردة جدًّا تجاهه ومهما استخدم من وسائل فهي لا تريد أن تقابله، وعلاوة على ذلك أرسلت له رسالة وداع نهائي، ولذا هو الآن يحاول استعارة جهود ستسكو، قائلًا إنها يجب أن تجعله، هو الذي لم ييئس من يوشيكو بعد، يستطيع مقابلتها.

ظلت ستسكو صامتة بدون أن تجيب، وكان سبب ذلك اعتقادها أنها أثناء ثقل معاناتها الذاتية لا يوجد عليها واجب الإحساس بالتعاطف مع مشاكل الآخرين العاطفية ولو بأقل القليل.

فهي الآن تتأمل بإمعان «مشاكل الآخرين العاطفية». كانت أمرًا قبيحًا، بل ومضحكًا. لم يكن مجرد عدم تعاطف؛ بل لدرجة أنها أحسَّت على العكس برغبة في مد يد العون له لتجعله في حالة لا أمل فيها ولا رجاء، وكان السبب في ذلك أن ستسكو رأت في ذلك مرآة تعكس مشكلتها هي العاطفية، وغضبت من تلك الصورة القبيحة التي تعكسها المرآة المشوهة.

– «ولكن إذا كانت تلك هي مشاعر يوشيكو، فحتى لو كلمتها أنا من أجلك فلن يكون ذلك مفيدًا، ويعتبر كذلك تدخلًا أكثر من اللازم مني كصديقة لها .. وإذا صارحتك القول، فأنا لا أستطيع تقديم العون لك لعمل أي شيء قد يسبب أي إزعاج لتلك السيدة.»

–«لا مانع من عدم مفاتحتها في الكلام من أجلي.»

قال الرجل ذلك بإلحاح ثم أضاف: «ولكن يكفي أن تجعليها تخرج من المنزل بشكلٍ ما ثم تجعلني أنا أقابلها. بعد ذلك ستكون المشكلة بيني وبين يوشيكو فقط، ولن أسبب لكِ أنتِ أي إزعاج.»

– «لا أريد. إذا فعلتُ ذلك سيكون سببًا أن العلاقة بيني وبين يوشيكو ستسوء بعدها.»

– «إلى هذه الدرجة أنت تحبين نفسك؟»

– «نعم. أنا أحب نفسي وكذلك أهتم بالصداقة إلى أقصى حد.»

– «حقًّا؟ إذا كان الأمر كذلك فيفضل أن تحبي نفسك. لكنك إذا رفضت طلبي، فأنا أستطيع كذلك أن أخبر السيد زوجك عن موضوع السيد تسوتشيا.»

ارتعبت ستسكو وتغير وجهها، وعندما حاولت إخفاء ذلك بدأت يداها ترتعشان، ولكن تلك المرأة التي ترغب في أن ينقص وزنها حتى تتلاشى تفجرت داخلها شجاعة رهيبة.

«لا مانع لديَّ أن تقول أي شيء؛ فزوجي شخص لا يأبه أبدًا لأمر مثل هذا. ولكنكَ رجل بلا أية شجاعة. لماذا تستأسد عليَّ أنا التي ليس لي أية علاقة بالأمر، وتقوم بتهديدي؟ فالمنطق يقول إنه يجب عليك أن تناقش الأمر مباشرة مع زوج يوشيكو، ما رأيكَ أن تفعل ذلك؟»

اندهشت ستسكو من قوة شجاعتها، ولم تعلم من أين أتتها تلك القوة؛ فعلى الأرجح في موقف كهذا لو قابلها في الماضي لكانت انهارت بالبكاء من الخوف.

ولكن ربما الذي جعل إيدا يخاف، أكثر من صدى تلك الكلمات القوية الصارمة، هو وجهها الذي كان جامدًا لا يتحرك وكأنه صخرة رغم الرعشة التي أصابت جسدها كله حتى وصلت لأطراف أصابعها. صارت ستسكو تُظهر في بعض الأحيان ملامح وجه ميتة، بفضل الحياة ذهابًا وعودة بين القلق والنشوة مؤخرًا ودون أن تعي بنفسها ذلك. فجأة تهرب المشاعر الموجودة في داخلها، والفم الذي لا يفكر في أي شيء، يقول أحيانًا أقوالًا ملائمة لا يمكن توقعها منها أبدًا.

فجأة فقدَ إيدا قوته، وغادر عائدًا في سرعة. وخرجت ستسكو للتنزه ورأسها في حالة انفعال.

يوجد محل لرجل ألماني يسكن في وسط العاصمة، أمام محطة نائية في منطقة ياشيكي ماتشي. توجد لوحة إعلانية مكتوبة عليها:

Have a German Rye Bread Sandwich & Beer!

توجد داخل المحل الذي أدفأته المدفأة، أشجار زينة مثل شجر الصمغ، ومزهرية فيها زهور الدريقة، وتفوح في المكان رائحة القهوة، وتوجد امرأة متوسطة العمر جاءت لشراء الخبز مصطحبة كلبها الكبير، ولا يوجد زبائن آخرون.

جلست ستسكو على مقعد عالٍ، وأخذت تحاول تخيل أنها صارت أسيرة للكسل. لكن لا فائدة، فالجسد خامل، وداخل الجسم حرارة عالية، والرأس الحادُّ أكثر من المعتاد لا يحاول أن يجلب أي شيء قريب ولو قليلًا من الكسل.

شربت ستسكو قهوة بمفردها، بمجرد أن لمست شفتاها ذلك الكوب من الخزف الصيني الأبيض الذي له سُمك لا تنفذ منه الحرارة، شعر قلبها براحة وسكينة، ولكن ما تريده ستسكو الآن ليس راحة القلب وسكينته. «ربما في مثل هذا الوقت يشرب الرجال

الخمر.» هكذا فكرت. «من أجل الهروب لأن الرجال ضعفاء» .. لقد قال السيد ماتسوكي لي: «حذار من الهروب!»

زاد بفضل المنبه الذي في القهوة صفاء ووضوح رؤيتها للأمور أكثر وأكثر، شاهدت من النافذة نبات القيقب الذابل، ونقطة الشرطة العتيقة، وعددًا من الكلاب قد خرجوا مع قانيهم في نزهة الغروب. شكَّت ستسكو في ضرورة أن يبدو العالم على هذه الدرجة من الوضوح والصفاء، فهي الآن ومنذ قليل جاءت هاربة من موقف مريع وهو تلقيها تهديدًا بسبب سوء أخلاقها. جاءت هاربة وعندما تصل إلى هذا المكان، تجد العالم سهل الفهم للغاية بهذه الدرجة من البساطة والإيجاز. لم تكن تستطيع الآن بأي حال من الأحوال أن تصدق أنها في الماضي كانت تقدر على العيش في ذلك العالم.

الفصل الثامن عشر

مرت على ستسكو الساعات والأيام والشهور، وخفَّت حدة الشتاء في لمح البصر. اختفى تهديد إيدا دون أن يحدث أي شيء، كما يقول المثل تمخض الجبل فولدَ فأرًا. هذا الرجل النقي داخليًّا، كان يتجاهل حسابات الربح والخسارة بدرجة زائدة عن الحد، تبعده من أن يتقن التهديد بأعصاب من حديد.

وستسكو التي تعلمَت أن إنهاء العلاقة الغرامية يمكن أن يتوقف قبل النهاية بخطوة ويتحول إلى اتجاه آخر، حتى إنها صارت تعتقد أنه من الأفضل الانتظار ببرود أعصاب حتى يغرق حدث من الأحداث، ثم يطفو على السطح حدث آخر.

وقد حرَصت على ألا تخبر يوشيكو بزيارة إيدا. ويوشيكو كذلك لم تتحدث عن إيدا بعد ذلك مطلقًا، وبدت ملامح وجهها صافية منعشة بعد زوال كل الأمواج والأعاصير. عندما ترى ستسكو ذلك الوجه الهادئ في سلام تتمنى لو أنها أطاعت إيدا وقتها وجعلته يقابل يوشيكو.

وكما هو المعتاد في العشر الأوائل من شهر مارس، في الصباح تهطل الثلوج مثل ندف القطن، ولكن بعد الظهيرة يصفو الجو ويعتدل بدفء شمس الربيع، ولكن بعد ذلك يجيء إعصار قوي مفاجئ، يجعل الجو باردًا قليلًا على البشرة. استمرت لقاءاتها مع تسوتشيا بشكل آلي، وقد صارت ستسكو محظية تسوتشيا.

وقد صار عزمها على ضرورة عدم اللقاء معه ثانية، بعد انتهاء كل لقاء، عادة ستسكو الشكلية مثل صلوات قبل النوم، ثم بعد ذلك عندما يصل تفكيرها مرة إلى «وداع»، يكون مختلفًا على قرار حازم يتم الوصول إليه اليوم وتنفيذه في نفس اليوم، بل هي تعتبره كأنه مثل قرار هام للغاية تظل تفكر فيه منذ عام كامل مضى ولكن في النهاية لا يصل الأمر إلى تنفيذه. مثل هذه الأفكار تكبر مثل كرة الثلج، وتتضخم بمغالاة مثل الأعمال البدنية حتى

تصبح لا تضاهيها قوتها الذاتية، وتستخدمها ستسكو بلا فائدة كحجة عديمة الجدوى لمرور الزمن. ربما لم يكن الأمر يحتاج إلا طاقة ضئيلة، الطاقة التي تحتاجها حركة تقريب علبة الثقاب الموضوعة فوق المنضدة للجهة الأخرى. ربما كانت حركة هينة تنتهي بمجرد تحريك أناملها قليلًا.

ولكن تلك الأفكار أرعبتها.. أخافتها فكرة أن ذلك الحدث الهائل يمكن أن ينتهي بمجرد تحريك أناملها فقط. كانت الفكرة الأكثر إثارة لخوفها أكثر من أي شيء آخر هي، إذا كانت حركة الأنامل البسيطة تُنهيه، فهذا يعني أنه لم يكن بتلك الأهمية والضخامة!

لا يثير تنبؤ الربيع فقط القلق، ولكن تمتلئ ستسكو بالقلق عندما تسمع أصوات رياح بداية الربيع المتربة المفاجئة التي تجعل النافذة تصرخ، تصل في النهاية لدرجة التفكير أنها نذير شؤم للموت. كانت براعم الحشائش الضئيلة الذابلة التي توجد على حوافِّ حديقة المنزل تثير الاشمئزاز. يمتلئ غيم السماء بصور مريبة مبهمة، وأحست أن المطر الذي يضرب زجاج النافذة فجأة في أواخر الليل ليس اعتباطًا. كان الربيع الذي على وشك المجيء، فقط لمجرد أن فصلًا جديدًا سيبدأ، يعطى ستسكو إحساسًا ما بالكراهية، وكذلك أن يأتي بلا أدنى اعتبار لرغبتنا في ذلك، كان ذلك عدوًّا بالنسبة لستسكو أيًّا كان سواء كان ربيعًا أم شيئًا آخر.

في صيف العام الماضي، تصالحت ستسكو من كل قلبها مع الطبيعة. دخل ذلك البحر، وغيوم السماء، والرياح جسد ستسكو بحرية، واستنشقتها بحرية، وصارت ورغبتها الجسدية شيئًا واحدًا، ولكن كل ذلك الآن تغير وأصبح عدوًّا لها. الآن أصبح كل ما يحيط بها من تغيرات الطبيعة في الربيع مشئومًا.

هجم القيء على ستسكو في صباح أحد الأيام، وبدون أن تجعل زوجها ينتبه هرعت نحو الحمام، وتقيأت. بعد أن أخفت شحوب وجهها بوضع مسحوق الوجه الوردي عليه، عادت لها شهيتها، ولكنها للأسف تقيأت أيضًا فطور الصباح الذي تناولته.

وهذا لم يكن أمرًا يصعب التنبؤ به، وبدأت ترتاب هل يا ترى كان من الصحيح أن تكون مخلصة دومًا تجاه قانون الطبيعة، وتكره بحقد الأشياء المصنَّعة، وقد وصل بها الحال إلى الاستياء والتقزز من تفاني وإخلاص جسدها بشكل لا يمكن مقارنته، وهو يكرر نفس الأمر تكرارًا وحشيًّا وقاسيًّا بهذا الشكل، ولكن عندما هدأت بعد أن ودعت زوجها الذاهب إلى عمله عند مدخل المنزل، كانت ستسكو قد قررت قرارها. ففي النهاية كان ذلك هو الصحيح. ربما يقوم الجسد — بمعنى تقوم الطبيعة — بما يبدو للوهلة الأولى انتقامًا

قاسيًا عديم الرحمة في التصرف وإيجاد حل لما ترى أنه صعب المراس وغير قابل للحل بقلبها فقط. انتهى حديث القلب، ولا توجد في النهاية أية فائدة، وبهذا الشكل فجأة تبدأ الطبيعة كما هي الآن تصرخ بنبرة قوية وعالية بشكل غير متوقع، وكان يجب على ستسكو الاستماع لها.

اتخذت ستسكو لجسدها وضع التأهب. يجب عليها تقبُّل هذا الضعف والهزال حتى النهاية، وقد فهمت مع مرور الأيام أن غثيان الوحم هذه المرة سيكون ثقيلًا وعلى درجة كبيرة من القوة والعنف رغم أنه لا يوجد مثال سابق جاء خفيفًا للمقارنة معه. كان الغثيان الذي يستمر على مدار اليوم ولا يمكن تحمُّله، جحيمًا من الرماد الأبيض، ولكن عرفت ستسكو أنه لا يوجد مخبأ جيد لآلام القلب أفضل من الغثيان الفسيولوجي. ليس الاستياء ذاته هو ما يسبب الضيق، ولكن وجوب إخفائه. البحث عن حجة ما ورفض التعامل بمفردها على العكس كان أسهل، ولكن في ليلة ما تم دعوة زوجها من أجانب لهم علاقة بعمله للاحتفال بعيد ميلاده، وعند خروجهما معًا، لاقت ستسكو متاعب مرعبة.

ولأنها كانت قد شكَت من ألم في معدتها، فلم يتم إجبارها على تناول الطعام، ولأن الطعام كان بوفيهًا مفتوحًا؛ فسار الأمر دون تكلُّف أكل ما لا ترغب في أكله، ويبدو أنها بشكل ما ستجتاز هذه الليلة بسلام، هكذا اعتقدت ستسكو.

انتهى الطعام. تحلَّق الجميع في تلك الليلة الباردة من ليالي الربيع حول المدفأة يشربون خمر بعد الطعام. كان فوق رفِّ تلك المدفأة، زوجان متشابهان من الشموع الحمراء كبيرتا الحجم مضاءتان.

لم تهاجم ستسكو أعراضُ القيء في تلك الليلة وحتى ذلك الوقت، وتناولت الطعام بشكل لم تكن تناولته به في الفترة الماضية، وبعد العشاء انتقلت إلى غرفة أخرى، وجلست على مقعد وثير، وفجأة لمحت رفَّ المدفأة، رأت ستسكو الشموع الحمراء.

بمجرد رؤيتها أحست على الفور بدوار، وارتفعت مشاعر القيء، وفار داخل الفم شيء ذو حموضة. رغم أنه في الوضع العادي لا تمثل الشموع الحمراء أي شيء مطلقًا، ولكن مجرد رؤيتها الآن تجلب لها الاستياء والحزن. ظنت ستسكو أنها قد أُجبرت على قضم الشموع بأسنانها .. لمعة تلك الشموع الخافتة، وذلك اللون الأحمر المسموم، أحست أن لسانها قد أجبر على تذوق طعمها.

على الفور قامت ستسكو بسدِّ فمها بمنديلها، وأسرعت إلى الحمام ثم تقيأت.

ولكن لم يهدأ صدر ستسكو حتى بعد تقيؤها. كانت مرعوبة من العودة إلى الغرفة التي بها تلك الشموع. رغم أنه توجد هناك أصوات الأحاديث والموسيقى، ويوجد بضع عشرة

من الرجال والنساء؛ إلا أنه لم يكن في عقل ستسكو إلا الشموع الحمراء، وأتاها إحساس أنها ستعود وحيدة إلى الغرفة التي تقف فيها تلك الشموع الحمراء بثبات تنتظرها بتلهف.

هل تستدعي زوجها؟ فتحت ستسكو باب الغرفة قليلًا، ورأت ظهر زوجها العريض وهو يتحدث مع الحضور على الجانب الآخر من الغرفة. لا يبدو أن صوتها يمكنه الوصول إليه. على كل الأحوال هذا الأمر ليس من الأمور التي يجب عليها الاعتماد فيها بقوة على مساعدة من زوجها. استجمعت ستسكو شجاعتها ودخلت الغرفة.

حرصت على أن توجد في أبعد مكان ممكن من رفِّ المدفأة، وحرصت على ألا تنظر ناحيتها، وضحكت بوضوح على جهدها ذلك. كان فستان الحفلات الذي ترتديه، هو نفسه الذي ذهبت به عندما صنعته لتناول الطعام مع تسوتشيا.

تحاول بكل جهدها ألا تنظر إلى الشموع الحمراء. تحاول ألا تنظر ولكنها في النهاية تنظر. يتراقص اللهب، وترى الشمع الملتهب بلون النهار الذي يوشك على الذوبان. هجم شعور الرغبة بالقيء على ستسكو مرة أخرى. وبعد أن تقيأت للمرة الثانية أصبحت ستسكو على وشك الإغماء في الحمام.

طلبت ستسكو من الخادمة التي قابلتها في الممر أن تنادي زوجها.

اعتذار سريع ومرتبك، كلمات الأجانب المتحذلقة التي ترجو السلامة ... داخل سيارة العودة، اختفى شعور القيء تمامًا من ستسكو وكأنه كان كذبًا، ولكن ستسكو تصنعت الإعياء تماشيًا مع زوجها الذي مع مراعاته لها، اضطرب بسبب اعتقاده بفشل الحفل.

– «ما الذي حدث لك؟ هل حدث مكروه لجسدك يا ترى؟»

أخيرًا بدأ زوجها الكلام. لم تبلغ ستسكو بشكواها من القيء ولكن أخبرته أنها تعاني من ألم المعدة.

– «هل أقوم بمَسكِكِ من جنبكِ ناحية المعدة؟»

– لا .. لا، على العكس لو فعلتَ ذلك فأنا ... أعتقد أنه ربما ليس بسبب مرض المعدة ولكن بسبب الأعصاب.»

ردد زوجها مرات عديدة أنه يجب أن يراها طبيب، ولذا وعدته أنها في الغد ستستدعي المدلِّك، لأنها خافت أن يدعو زوجها الطبيب دون علمها. كان زوجها يحترس من أن تعتقد زوجته أنه يقلق من فشل علاقاته في العمل فقط، ولذا فمن حين لآخر، يبالغ في أن يُظهر قلقًا حميميًّا عليها، وكانت ستسكو تستطيع تفهم ذلك؛ إلا أن ستسكو أحست أن غروره الظريف هذا بعيد جدًّا عنها، وكأنه حقيقة نفسية ليس لها أية علاقة بها. واندهشت ستسكو من نفسها عندما تبينت أنها لا تحمل أي حُكم سواء جيد أو سيئ تجاه أفعال

زوجها، وأخيرًا يئس زوجها وقال: «إذا كان الأمر كذلك، فلا بأس بالمدلِّك، فأنت لا تؤمنين أبدًا بالطب الحديث، أليس كذلك؟»

في الصباح التالي، جاء المدلك بعد خروج زوجها لعمله مباشرة. لم تشتكِ له ستسكو من أعراض معينة. بل قالت له فقط إنها تريد علاجًا طبيعيًّا لإصابتها بالإجهاد الشديد.

حرك ذلك الرجل الذي يرتدي نظارة سوداء وبدون ملامح ونحيف مثل شجرة ذابلة، أصابعه بلا توقف بقوة شديدة تقترب من عدم الحياء، وأثناء ذلك يتلفظ بكلمات غاية في التأدب. أثناء تدليكه صامتًا لفترة من الزمن، أحست ستسكو بعد غياب طويل بنفسها التي لا تفكر في أي شيء. اللحم الذي يتم تدليكه هنا، منحنيات الجسد الذي يتم ضغطه ... إذا كانت تملك ذلك فقط فهو يكفي.

فجأة سألها المدلك بما يلي بطريقة مؤدبة: «معذرة يا سيدتي ولكن هل أنتِ حامل؟»

تجمدت ستسكو، وزاد خفقان قلبها، وبدون وعي احتوت كلماتها على غضب: «لا، أبدًا هذا مستحيل. ليس كذلك أبدًا.»

– «أعتذر بشدة عن ذلك. إذَن هو خطأ مني في التفكير. عندما أقول شيئًا معتمدًا على حاستي التي تبلغ أعوامًا طويلة، أحيانًا أقع في أخطاء فادحة .. أنا حقًّا أعتذر بشدة.»

عقدت ستسكو عزمها على ضرورة الإجهاض بأسرع وقت ممكن.

خلال أسبوع كامل، لم تأكل ستسكو أي طعام تقريبًا، وظهر الهزال على جسدها كلها، وتتقطع أنفاسها عندما تصعد درجات قليلة من السلم.

فحصت الطبيبة جسدها واندهشت لذلك الهزال، وقالت لها إن التخدير سيكون خطرًا على القلب، ولذا يجب إجراء العملية بدون تخدير، وسألَتها هل تقبل بذلك؟ وأجابت ستسكو أنها تقبل.

قالت الطبيبة لها: «إذا لم تستطيعي التحمل، فأصدري صوتًا بلا تردد. عندها سأضع لك مخدرًا موضعيًّا. لأن المخدر الموضعي لا يوجد له تأثير على القلب.»

ولقد عرفت ستسكو أن الجحيم الذي كانت في انتظاره يتربص بها في هذا المكان. قُيدت ستسكو التي استلقت على الفراش من يديها ورجليها بقوة. من قبل أن تبدأ العملية بدأت يداها تعرقان عرقًا باردًا كثيفًا.

أنا بالتأكيد سأموت داخل العار ووسط الخزي، بالتأكيد سأموت، هكذا كانت ستسكو تفكر. كتبت في سجلات المستشفى عنوان صديقة واسمًا مكذوبًا. أكيد الصديقة ستأتي على عجل بعد استدعائها وتلتقي مع جثتي. وأخيرًا يأتي زوجي ليستلم الجثة. بالرغم من ذلك لا ينتبه لخطيئتي. سيبكي كيكو، وبالتأكيد سيغفر لي ذلك.

تحاول ستسكو ألا تتذكر تسوتشيا مطلقًا، ورغم ذلك كان وجهه هو الذي يتبادر إلى ذهنها صافيًا حيويًّا، وكانت اليد التي تتمنى أن تقبض عليها وهي تحتضر هي بالتأكيد يده، ولكن كان الأكثر راحة من تخيله يبكي عند علمه بموتها، تخيله يصفِّر بفمه عندما يعلم بموتها، ثم يخرج في نزهة إلى حقول الربيع. كان من المستحيل أن يليق على هذا الشاب الحزن والألم والمعاناة، تمامًا مثلما لا يليق عليه رباط العنق بأي حال.

عند الموت يصير الخزي والعار رمادًا. ربما أوكل أمر جثتي إلى حقول الربيع. ربما يختلط رمادي داخل الرماد الأسود بعد حرق بواقي قش الأزر في الحقول. وتُذيب الأمطار رماد الحشائش الذابلة مع رمادي، وتتقبلني الطبيعة. ظلت ستسكو تفكر فقط في الموت. انتهت عملية الإجهاض، وعاد كل شيء إلى أصله، وتحسنت صحتها، حسنًا ماذا بعد ذلك، لم تكن تستطيع بأي حال التفكير في المستقبل.

«سأقوم بوضع المطهر.»

سمعَت صوت الطبيبة الهادئ المتزن وهي تقول ذلك. شيء علمَت به فيما بعد، تستخدم الطبيبة تلك الكلمة في خداع المريض وإزالة توقعه الألم.

يوجد في وضوح الألم فائدة ما للروح. لا يمكن لأية أفكار وكذلك لا يمكن لأية أحاسيس الوصول إلى درجة وضوح الألم العنيف. سواء كان ذلك أمرًا جيدًا أم سيئًا ولكنها تجعلك ترى العالم مباشرة.

فكرت ستسكو في هذا فيما بعد، ولكنها كانت قد تهيأت لديها تدريجيًّا القوة التي تتحمل بها تلك الدرجة من الألم، ولكن من خلال هذا الألم كله وكذلك من خلال تحملها له، أزالت ستسكو تمامًا أحد ملامح شخصيتها التي ظلت تعاني منها طويلًا وهي كونها امرأة عادية وصارت امرأة غير عادية. أثناء معاناتها من الألم الشديد، لم تطلق صوتًا واحدًا يعبر عن الألم. ولذا أعرضت الطبيبة عن استخدام المخدر الموضعي الذي كانت قد جهزته للاستعمال.

«حسنًا، سأقوم بوضع المطهر مرة أخرى.»

سمعت ستسكو تلك الكلمات الرقيقة وهي في أقصى حالات التألم، حالة فقدان معايير الأحاسيس لدرجة عدم الإحساس بأشد أنواع الألم إلا وكأنه حلو المذاق، ولكن ورغم ذلك لم تعتقد ستسكو أن ذلك هو الموت. علاقة الألم مع قدرتها على احتماله، كافية وممتلئة مثل أشعة ما متألقة، ولم تعتقد أن ذلك يتواصل كما هو بحالته تلك إلى خمول الموت. توجد ستسكو، ويوجد الألم. العالم كله ملآن ومكتفٍ بهذا فقط. ولا يطفو على سطح الوعي

والتفكير الجنين الذي سيتم التخلص منه، وعلى العكس لم تستدع ذاكرة ستسكو حتى اسم تسوتشيا.

في تلك الليلة غرقت ستسكو في نوم عميق دون أن ترى أي أحلام مطلقًا، وفي الصباح التالي اعتقدت أن السماء أكثر زرقة من المعتاد.

في الليلة التالية ظلت تتلوى بحلم «جاثومي» تسير فيه هاربة، تلاحقها أبقار من مكتب إلى مكتب.

علاوة على ذلك في الليلة التي تليها أخيرًا ظهر الجنين. رأت حلمًا فيه جنين ملطخ بالدماء يزحف إليها خارجًا من مقابر الشهداء التي تم نبشها.

كانت القوة التي حصلت عليها ستسكو من خلال تلك الآلام جعلتها لا تتلاشى مع ضعفها وهزالها الحالي، ليس هذا فقط بل وشعرت أن ثقتها في قوتها الذاتية تزداد أكثر وأكثر، ووصلت إلى أن تدرك أن هذه القوة بحق هي القوة التي تحثها على قرار الفراق، وظلت تستدعي كلمة «الفراق» بديلًا عن اسم تسوتشيا مائة مرة في اليوم، وكان ذلك يدخل وعيها كقوة لها، ولكن في الواقع، ربما كان ذلك غريزة الدفاع عن النفس الطبيعية الموجودة في الكائن الحي الذي أصبح لا يحتمل الاستغلال لتلك الدرجة. الآن بعد أن أفلتت من الموت بصعوبة أصبحت تخاف الموت.

ولكن على العكس الذاكرة البالغة الطزاجة والجدة لتلك الآلام وهذه المعاناة أصبحت بذرة للتعلق به وعدم القدرة على نسيانه؛ وذلك لأنها عندما تفكر أن ذلك الألم وتلك المعاناة في النهاية كان أصلهما وسببهما تسوتشيا، ففراق تسوتشيا الآن لا يعني إلا فراق ذاكرة الآلام التي تفخر بها التي هي بالفعل آخذة تدريجيًّا في أن تصبح الجزء الأكثر حيوية وجدَّة لتلك الذاكرة السرية الحلوة المظلمة.

لم تنتبه ستسكو إلى نفسها وهي تقوم بمحاولة تبديل ماهرة. لم تنتبه إلى نفسها وهي تحاول تبديل علاقتها الحميمية المتعة مع تسوتشيا التي يصعب البعد عنها بعلاقة مع الألم أكثر مهابة أو أكثر رسوخًا.

فجأة جاء اتصال هاتفي من أحد الأصدقاء، يُبلغها بنعي ماتسوكي. لم تنشر جريدة واحدة في الصفحة الأولى نبأ موت هذا الرجل الذي ابتعد منذ زمن طويل عن أضواء المجتمع.

ستسكو التي أصبحت سريعة التأثر بكت عند سماع ذلك النبأ، وتعجبت من مصادفة تزامن موت ماتسوكي مع إجرائها للعملية في نفس اليوم بالصدفة. وأحست أن ذلك العجوز الغارق في الوحدة قد فداها ومات عوضًا عنها، ثم لم يكن هناك شيء يجبر ستسكو

على الفراق أكثر من هذه التخيلات، وكذلك نشرت جريدة أحد الأيام نبأ حادثة انتحار أحد الأشخاص الذين أثاروا إعجاب الدنيا، بسبب نشر إحدى صحف الفضائح لتفاصيل الفوضى داخل أسرته. كانت تلك الحادثة طعامًا لنقد المجتمع لضعف شخصية المنتحر، ولكن في ذات الوقت ارتفعت أصوات تمدحه قائلة إنه فعل أخلاقي ندُر وجوده في العصر الحالي، ولكن كانت شخصية ذلك المنتحر في غاية الاستقامة وكان شديد المراس مع نفسه ومع الآخرين، وعند اكتشاف هذا التناقض، من المحتمل أنه لم يستطع تحمل ذلك، ثم إن موضعه في المجتمع كان موضعًا يحتِّم عليه أن يكون قدوة للمجتمع، لدرجة لا يمكن معها التسامح مع أي عار أخلاقي ولو ضئيل.

كانت ستسكو مدعوَّة بالصدفة منذ اليوم السابق على مأدبة غداء مع والدها. هناك حيث كانت مأدبة لوالد وابنته منفردين، من الطبيعي أن يتطرق الحديث إلى أنباء الصباح تلك.

والدها كاغياسو فوجي قد أصبح في الخامسة والستين من العمر. كبير العائلة ذو الشعر الأبيض الجميل والأخلاق العالية والشخصية الرصينة كان موضع احترام وتبجيل المجتمع. مهما استخدمنا المنظار المكبر وبحثنا في طول حياته وعرضها، لن نجد أي إخلال أو خروج عن مبدئه السياسي ولا أي سقطات أخلاقية شخصية. وكنتيجة لذلك، فهو حاليًّا، رغم اختلاف مسار المجال الوظيفي عما كان عليه فيما مضي، فهو بحق يحمل صفات شخصية لا غبار عليها مهما نظرنا إليها من أي اتجاه ويشغل وظيفة تمثل عدالة الوطن بعدما طُلب منه ذلك بصفة خاصة.

ولكنه لم يكُن أبدًا ذا شخصية صعبة المراس تسيطر وتتحكم في الآخرين. كان حليمًا عطوفًا تجاه الناس. كان من نوع الناس الذين لو سقط عليهم أخطاء وذنوب الأخرين ينسحبون بأنفسهم في نقاء وهو يعتقد أنه ذلك من سوء أخلاقه هو.

لقد كانت ستسكو محبوبة بشكل خاص من والدها. لم يكن أبدًا أبًا يحابي وينحاز لأحد، ولكن كانت ستسكو تقترب منه أكثر من باقي بناته الكثيرات، وكذلك من وجهة نظر والدها تبدو له ستسكو ضعيفة من الدرجة الأولى وفي احتياج دائم لحماية من نوع ما.

وسط مشاغله الكثيرة في عمله، عندما يصادف أن يكون لديه يوم ليس هناك مواعيد محددة في وقت الغداء يستدعي كاغياسو بناته واحدة بعد أخرى من بيوت أزواجهن المختلفة لدعوتها على الغداء، وأصبح ذلك أكبر متع الحياة. وسبب دعوتهن كل واحدة بمفردها هو حرصه على ألا تعرف الواحدة منهن المشاكل الأسرية التي تواجه أخواتها

الأخريات، ولكن رغم ذلك ولأن كاغياسو لديه ضبط النفس تجاه كل الأمور فهو لم يسبق له أن أخذ موقف السؤال من نفسه ومحاولة التقدم واستخراج الأسرار الأسرية لهن أثناء الحديث. تزوجت إحدى بناته عالمًا محبًّا للعلم ولكنه فقير، وهو في الواقع يعطيها مع هدية الغداء مبلغًا ماليًّا بشكل غير ملحوظ.

دُعيت ستسكو في ذلك اليوم وذهبت إلى مكان هادئ كان في الماضي قصرًا لمالك إحدى كبريات المجموعات الاقتصادية السابقة، وقد أصبح اليوم ناديًا اجتماعيًّا بنظام العضوية. داخل نطاق القصر الواسع يوجد عدد من المباني الصغيرة. وفي كلٍّ منها حجرتان أو ثلاث حجرات على الطراز الغربي مع غرف تدخلها الشمس، وهناك استطاعا تناول الطعام بمفردهما في روية وتؤدة.

وكل مبنى صغير يحتوي على حديقة واسعة، وعلى حوافِّ الحشائش توجد زهور الكاميليا الوفيرة. وتوجد شجرة كرز قديمة عملاقة، ولكنها لا زالت براعم ولم تزهر بعد، وكذلك مظهر الأشجار المتعددة الفاخرة، يجعلك تتذكر ماضي مدينة القصور في طوكيو التي نجت من الحرق في الحرب. لم يأتِ الوالد بعد. أسلمت ستسكو جسدها لمقعد طويل عتيق ولكنه رصين. عدم وجود نار في المدفأة، يجعل الجو يبدو بدرجة تُحس معها بالوحشة الضئيلة. لا يجعلك المكان تُحس بأنه في مركز ووسط العاصمة طوكيو. لا يُسمع صدى أصوات السيارات من أي مكان.

مع تأملها الحديقة ذات الحشائش الزابلة الجميلة تحت أشعة الشمس، تذوقت ستسكو هذه اللحظات من الراحة التي تغلغلت فيها. ستسكو التي ارتدت بذلة سوداء تماشيًا مع ذوق والديها، مدَّت رجلها ذات الشكل الرائع، ناحية المدفئة التي لا يوجد بها أي أثر للنار. جمال الشكل هذا لا زال على حاله ولم ينكسر مطلقًا.

وسط تلك الراحة غير المتوقعة، لم تأتِها اليوم حالة الشعور بالمرض التي تشع خمولًا وإجهادًا فوريًّا. كانت راحة اليوم بها شيء ما حيوي منعش يشمل الجسم.

انتبه الوالد الذي دخل أخيرًا المكان على الفور لملامح وجهها الصافية. «رائع أنك تبدين بخير.» هكذا قال الأب لابنته التي أسقطت بذرة الخطيئة من أسبوع فقط لا غير. ثم تابع كلامه: «ولكن ماذا حدث؟ يبدو لي أنك نحفتِ بشدة، أم هو ظن خاطئ مني؟»

تحدث الاثنان بأحاديث كثيرة غير مثيرة. كان العيب الوحيد الذي يجب ذكره لكاغياسو، هو انعدام الفكاهة واللباقة في حديثه، وتذكرت ستسكو وهي تجاريه في حديثه جو منزل عائلة فوجي الرتيب. فهمت ستسكو أنها قد أرهقت من اللباقة بعد انغماسها

طوال العام الماضي كله في غرامها غير الأخلاقي؛ فمهما كانت اللباقة رائعة وجميلة، أليس من الممكن أن تكون ستسكو قد خُلقت غير مناسبة للباقة؟

تم إخبارهما بأن الطعام قد تم تجهيزه، وجلس الاثنان على مائدة تطل على الحديقة. فرد على الركبة منديلًا منشًّى للغاية. ثم انتظرا لأن تُحمل أطباق المقبلات، وحينها تطرَّق الحديث إلى موضوع الخبر الذي نشرته صحف الصباح.

قال كاغياسو: «أنا كنت أعرف الرجل رغم أننا لم نكن بهذه الدرجة من الألفة والمعرفة. كان رجلًا عظيمًا. رجلًا ليس به أية عيوب ولا عليه أية ملاحظات، ورغم ذلك كان رجلًا تعسًا بدرجة لا يمكن تبريرها.»

– «ولكن هل حدث شيء لدرجة أن يُقدِم على الانتحار؟»

– «لا حيلة في ذلك، فهو أمر يعتمد على شخصية كل فرد على حدة.»

جاءت أطباق المقبلات فبدأ الاثنان تناول الطعام. أحست ستسكو بطزاجة شهيتها العادية للطعام، واحتواها توقُّع أنها يمكنها مواصلة الحياة وتخطيها حتى لو فقدت هدفها الأول في الحياة.

ولكن ستسكو في تلك اللحظة، أحست بصدمة عنيفة فجأة من موضوع المنتحر الذي طُرح توًّا، وانفصلت عن مشاعر الراحة والهدوء التي سقطت فيها لوهلة. فجأة لم يعُد هذا الموضوع مجرد خبر في جريدة، ولكنه تحوَّل ليصبغ العلاقة بينهما كأبٍ وابنة. جربت ستسكو لأول مرة أن تربط بين غرامها وبين ضمير والدها الوظيفي بخيط واحد مستقيم؛ فهجم رعب شديد عليها.

«مثلًا ... نفترض جدلًا، لو حدث شيء شبيه بذلك حولكَ يا أبتِ، ماذا أنت فاعل؟ هل فعلًا ستقوم بالانتحار؟»

كان صوت ستسكو يرتجف قليلًا، وأجاب كاغياسو على الفور: «لا لن أنتحر .. فالانتحار في اعتقادي ذنب عظيم، ولذا لن أنتحر، ولكن ماذا أقول ... أجل، لو فرضًا أنه حدث مثل ذلك لي فربما أتقدم باستقالتي في نفس اليوم. ليس في عائلتي فحسب. فلو أخطأت أي من بناتي المتزوجات، فلم يكون ذلك مستساغًا في مهنتي هذه، وبالنسبة لي لا فرق بين ظهور ذلك في العلن من عدمه، بل يكفي أن أعلم أنا فقط بذلك. عندها سأتقدم باستقالتي في نفس اليوم، وأعزم على الاختفاء من الحياة العامة، ولحسن الحظ لا يمكن وقوع شيء مثل ذلك في محيطي، ومقارنة نفسي بذلك الرجل الذي انتحر، أعتقد أنني قد أُعطيت فوق ما ينبغي. يوجد الكثير من الإجهاد والمعاناة في عملي، ولكن يا ستسكو سأقول لك كلمة واحدة: أنا الآن أعيش في سعادة كبيرة.»

كانت تلك على الأحرى كلمة امتنان وشكر، وبسبب تلك الكلمة ثارت زوبعة من الأفكار داخل عقل ستسكو؛ فهي لم تكن امرأة وُلدت لتكون علكة تُمضغ في الجرائد. عائلة فوجي الهادئة الوادعة المشرقة، ذات الأخلاق السامية، عائلة لا تحاول خرق القواعد والقوانين، ولا تسيطر عليها الغريزة، قلب لا يعاني ولا يتعب من الملل، والحقيقة أنها عائلة لا تقامر بنفسها على أشياء غير ملتزمة، وكذلك من المفروض أن ستسكو أيضًا تحتويها تلك الصفات، والحقيقة أن ستسكو لم تشعر أبدًا بأي مقاومة لتلك الصفات، قبل وقوعها في الغرام.

في غداء ذلك اليوم أخذت ستسكو بكل وضوح قرار الفراق.

كانت ستسكو بالفعل تعِي النفاق، وكانت تحبه وهي التي اختارته، والنفاق كذلك له وجهه جيدة عديدة. إذا سكن الإنسان داخل النفاق فقط، يصبح لا يستطيع تذكر ظمأ القلب تجاه ما يُدعى الفضيلة، والأمل أن ذلك أيضًا يُوقف كل أنواع الظمأ.

الفصل التاسع عشر

بعد دخول شهر أبريل، هطلت الثلوج، وتراكمت فوق أزهار الكرز التي تفتح أغلبها لتجعلها تميل. كان ذلك مشهدًا عجيبًا.

وكان البرد شديدًا في الأيام الثلاثة التي استمرت بعد ذلك.

ويوجد غدًا لقاء غرامي مع تسوتشيا بعد غياب طويل. حدثته ستسكو بالهاتف من قبل، قائلة لأننا لم نَعُد أطفالًا بالفعل، فلا فائدة من أن نتقابل فقط من أجل مراعاة مشاعر أحدنا الآخر، لنتقابل عندما يعود الجسد إلى ما كان عليه من صحة. ويبدو أن تسوتشيا اعتبر تلك الطريقة الجريئة والواضحة وسهلة الفهم، دليلًا على نضوج ستسكو.

غدًا هو ذلك اليوم، وهو اليوم الذي يجب فيه أن تنطق كلمة الوداع. وهو أيضًا اليوم الذي يجب أن تنتهي فيه تلك المتعة التي من أجلها عانت ستسكو لهذا الدرجة. تزين قلب ستسكو بجمال مع تلك المتعة الأخيرة.

كانت ستسكو، التي عرفت من خلال تجربة الجراحة بدون تخدير، أنواعًا مماثلة حية لذكرى الألم والموت والمتعة، قد أطلقت العنان لأفكارها المحمومة حول المتعة الأخيرة قبل الموت بلحظات أو الموت في لحظة المتعة القصوى ... إلخ. كانت تبدو وكأنها ترغب في تلقي تلك الجراحة المرعبة مرة أخرى غدًا.

راهنت ستسكو أملها على يومِ غدٍ. وشعرت أنها لم يسبق لها أن حلمت بيوم غدٍ لتلك الدرجة، وظنت ستسكو أن يوم غدٍ هو ذلك اليوم الذي يشاركها فيه تسوتشيا حلمها الذي ظلت تحلم به طويلًا .. طويلًا، أن تسوتشيا عندما يعلم أن ذلك اليوم هو الفرصة الأخيرة سيصعد مرة واحدة فجائية إلى حدود مشاعر ستسكو العالية ويغرق جسده بنفس التأثر ونفس الدموع.

«ولكن هل يكون الأمر على ما يرام يا تُرى؟» قلقت ستسكو قليلًا. «لو خرجت مني أنا كلمة الفراق، ألا يمكن ألا يرغب هو في الفراق؟ عند الوصول إلى اللحظة الحرجة في العلاقة ألن يتشبث بي بدموع التعلق بي (آه .. ستكون تلك بحق هي أول مرة أرى فيها دموعه!)، طالبًا مني العدول عن رأيي؟ هل رغم ذلك سيكون لديَّ القوة والطاقة لترك ذلك كله والفراق .. كان يجب عليَّ الاستعداد بتجريب ذلك أكثر من مرة قبل أن أطرح مسألة الفراق بهذه الطريقة المفاجئة!» ولكن ستسكو لم يكن لديها الشجاعة لمحاولة تجريب ذلك ولو لمرة واحدة.

كان ذلك اليوم أيضًا غائمًا خفيف البرودة. تمنت ستسكو أن تحافظ اليوم على ملامح وضَّاءة طوال اليوم، ومن أجل ذلك اجتهدت في جعل مكياج اليوم في كل تفاصيله غامقًا بشكل ضئيل عن كل مرة، ووضعت عطرها المعتاد «جوي» لجان باتو (Jean Patou JOY).

تناول الاثنان الطعام في ابتهاج، وشاهدا أحد أفلام الخيانة الزوجية التي اعتادا على اختيار أحدها ومشاهدته. كان عبارة عن مأساة ضخمة على الطريقة الإيطالية، وكانت ستسكو على وشك أن تنساب دموعها رغمًا عنها، ولكن في الأغلب الأعم نجح تمثيلها ومهما كان كلامها قليلًا، لم يصل الأمر أن يوجه لها تسوتشيا أسئلة بشكل خاص. فتح تسوتشيا باب التاكسي بحكم العادة، وجعل ستسكو تركب أولًا، وذهب الاثنان إلى فندقهما المعتاد.

كانت كل الغرف الجيدة في الفندق في تلك الليلة محجوزة فيه، ولذا أُعطَيا غرفة غربية الطراز مساحتها ضيقة بشكل مقزز، وكان يوجد في وسطها سرير ناصع البياض. كانت ستائر النافذة شفافة، مما جعل الغرفة تُضاء وتظلم مع أضواء لوحة الدعاية عن الفندق الضخمة التي ظهر خلفيتها من النافذة.

جلس الاثنان صامتَين على المقعد الضيق عالي الظهر بجوار النافذة. أتت عاملة الفندق بالشاي الأخضر ووضعته ثم انسحبت خارجة من الغرفة. وعندما رأى تسوتشيا أن ستسكو رغم ذلك لا زالت صامتة، ربما وصل إحساسه بالقلق إلى درجة جعلته يقوم بعمل الشيء الذي كان دائمًا يفعله بمهارة أكثر، بطريقة جعلتها تُحس إلى درجة ما أنها روتينية ومكشوفة؛ فقد قام بتقبيلها وهو يلُف إحدى يديه حول خصرها ويدلِّك باليد الأخرى ثديها من فوق ملابسها.

جُرح كبرياء ستسكو لروتينية وآلية ذلك الفعل، ولكنها لم تستطع رفض شفتيه، وعند لمس ثديها اجتاحت جسدها على الفور صاعقة قوية لم تستطع معها نفي إحساسها بأن أعماق جسدها يُرفع ويُعصر بمتعة وجودة. كان ذلك شعورًا من المفترض أنها قد

نسيته خلال الأسابيع الماضية. كان من المفترض أنه إحساس تم إزالته ومسحه منذ زمن بعيد، خاصة بعد تلك الآلام الرهيبة التي صاحبت الإجهاض. وإذا دُعيت تلك الأحاسيس فاستيقظت لمرة، سترتبط الذاكرة بخط مباشر مع الماضي، وتتساوى بعدل معها.

عادت ستسكو إلى نفسها عندما أصابت أشعة النيون الخلفية الحمراء عينيها. لا يجب استمرار هذا الوضع. ستفلت مني فرصة التعافي مع هذا الوضع .. بصعوبة أبعدت ستسكو يدَي تسوتشيا.

«قبل ذلك هناك ما أود إخبارك به. إنه حديث في غاية الأهمية ...»

عندما وصلت لذلك القول لحسن الحظ غطَّت وجنتيها الدموع التي انسابت وخرجَت من عينيها.

استندَت ستسكو على صدر تسوتشيا وحكَت وهي تبكي حكاية طويلة مسهبة. إلى أي مدًى كانت تعاني. إلى أي مدًى كان يجب عليها فراقه ولكنها رغم ذلك لم تفعل. إلى أي مدًى لا يوجد أي مستقبل مأمول لحبهما. إلى أي مدًى كان يجب عليها الإسراع في سلك طريق تعلم جيدًا أنها طريق مسدودة. إلى أي مدًى تصبح المرأة التي توضع في موقف كهذا تعيسة.

«أنتَ موقفك جيد؛ فأنتَ حر تمامًا، وليس هناك أي شيء يزعجك.»

كانت تلك هي ترنيمة ستسكو.

حكت بإسهاب وتفصيل؛ أنها كانت في حالة اقتربت كثيرًا من الموت. قتالها إلى آخر حدود قدرة البشر، وفي نهاية ذلك كانت النتيجة التي وصلت إليها هي ما يلي، ولذا فهو قرار حاسم وصلب، وأنها ترغب بأي حال أن يوافقها عليه .. وفي النهاية قالت ستسكو: «لنجعلها الليلة الأخيرة بيننا. لنجعل الليلة ذكرى جميلة حقًّا.»

كان تسوتشيا يستمع من البداية للنهاية صامتًا، وستسكو التي تتحدث بمفردها وهي تبكي، لم تنتبه إلى المعنى الذي يتضمنه هذا الصمت، ولم تنتبه كذلك إلى أن تسوتشيا لا يبكي بتاتًا. كانت ستسكو وكأن جسدها قد أصبح خاويًا، تبكي بمشاعر مكتفية ممتلئة أنها أخيرًا قالت ما كان عليها قوله ولكنها ظلت صامتة عنه لمدة طويلة.

كان وجه تسوتشيا محجوبًا خلف شعره، وقد لفَّ ذراعه بالقميص حول خصر ستسكو ويداعبها هناك قليلًا، وكانت ستسكو تشعر بذلك من وقت لآخر، وحاولت أكثر من مرة رفض تلك المداعبة التي تشبه أغاني هدهدة الأطفال ولا تتناسب مع حكايتها المأساوية الرهيبة، ولكنها في النهاية تركته يفعل ما يريد.

«أفهم .. أفهم.»

قال ذلك بصوت مبحوح. لم يكُن يوجد في ذلك الصوت الهادئ أي صدًى لليأس.

«أفهم .. أفهم.»

قال ذلك مرة أخرى. طوال تلك الحكاية المأساوية الطويلة لم يقُل تسوتشيا غير تلك الكلمة فقط. ثم عندما شعرت بوضوح بحرارة جسد الرجل بعيدًا عن دموعها قالت ستسكو: «لنجعل هذا الليلة هي الأخيرة.» وقد آمنت أن تسوتشيا لا ريب كما فعل مرة في إحدى الليالي سيحمل صامتًا جسدها المبلل بالدموع المالحة إلى الفراش.

ما الذي حدث؟ كان تسوتشيا ساكنًا لا يتحرك.

أحاط تسوتشيا بكلتا يديه وجنتَي ستسكو التي تلمع بالدموع للدرجة التي تنزلق معها يداه من عليها، وكما وكأنه رجل يحتضر فتح عينيه قليلًا ثم أغمضهما مرة أخرى.

«أتسمعين؟ بعد هذه الحكاية ...»

قال تسوتشيا ذلك ببطء شديد، وصوت دافئ مختلط نصفه بنبرة مَن جُرحت مشاعره، وكما أوقفت يوشيكو قلبها ذات مرة، كان ذلك الفتى يثق تمامَ الثقة في الجاذبية الجنسية التي يملكها صوته؛ بل وهو كذلك حتى في اللحظة الأخيرة هذه.

«أتسمعين؟ بعد هذه الحكاية ...»

كرر كلامه مرة أخرى.

«... لا يمكن فعل ذلك. لقد خُلق الرجال هكذا. بالإضافة إلى أنه من أجلكِ أنتِ أيضًا .. لا .. لا يجب أن أذكر كلمةَ من أجلكِ تلك، بل هذا هو الأفضل لكلينا، فبعد أن أخذتِ هذا القرار خاصة، ورغم ذلك لو فعلناها، سيعود الوضع مرة أخرى إلى ما كان عليه؛ فأنا لو فعلت ذلك الآن، لا توجد لديَّ أي ثقة بالنفس من عدم عودتي مرة أخرى إلى سابق عهدي.»

سمعَت ستسكو ذلك وكأنها في حلم يقظة، وغيَّر تسوتشيا الأمر بتلك الكلمات، وجعل الفراق حقيقة مؤكدة بالفعل. أسرعَت هي بالموافقة وأومأت مسرعة في محاولةٍ لأن تكون تلقائية وطبيعية بقدر المستطاع.

«لنتحدث الليلة في رَوِية، بدون فعل شيء، لنتحدث معًا في هدوء وأناة ونقضِ الوقت بمشاعر طيبة.»

سمعَت ستسكو تسوتشيا يقول ذلك أخيرًا. كانت له أعصاب غريبة لا تريد استخدام كلمة «الفراق» مطلقًا، ولكنه كان هو الذي وضع أولًا خاتمه بصمتٍ ليعتمد تلك الكلمة.

إلى أي مدًى الحديث فقط وعدم فعل أي شيء في غرفة فندق من هذا النوع، هو أمر خانق ومؤلم؟ مسح تسوتشيا بمنديله دموع ستسكو بعناية واهتمام. وعندما أخذا

وضع «حسنًا فلنتحدث» اختفت كل الأحاديث، وغرق الاثنان في تأملات فكرية، وكان وجه تسوتشيا وكأنه قد ذهب إلى عزاء في جنازة.

أما ستسكو فقد اندهشت من عدم شعورها بأي إحباط أو فقدان أمل، رغم انهيار كل أوهام العواطف الجياشة التي ظلت طوال الليلة الماضية ترسمها وخيانتها لها جميعًا بلا بقاء أي جزء منها.

الموجود الآن ليس شعور التحرر، بل فقط شعور الرضا الممل بشكلٍ ما، الذي يأتي بعد تحقيق أحد الأمور. فكرت ستسكو أن الفراق هو فقط كذلك.

يجلس بجوارها فتًى نقي أفلت بصعوبة من خطر أن يصبح أبًا. الأمر الذي يثير الحنق والغضب هو أنه وللآن لا زال يبدو لها نقيًّا طاهرًا. ورغم ذلك ما هي يا تُرى حقيقة اختفاء ذلك الوجه من أمام عينيها على الفور، مختلطًا مع عموم البشر. تأملت ستسكو ذلك الوجه مثل المسافر الذي على وشك الرحيل ومغادرة المكان ويلقي النظرة الأخيرة للخلف على المشهد الذي سيتركه.

يا لتعاطف تسوتشيا! إنه حقًّا تعاطف حكيم متعقل. لقد كان تلك الليلة حنونًا عطوفًا مثل الأطباء.

ولكن تلك العيون ليس بها أي كسل، تراقب قلب ستسكو حتى لا تنصرف مرة أخرى عن القضبان التي قررتها وبدأت السير عليها، بل حتى إنه يُظهر إخفاءه التعلُّق بها في دقة وبحذر شديد وعميق. كان يُظهر بمبالغةٍ ضخامة التضحيات التي يجب عليه دفعها إزاء ذلك الفراق، ولم ينسَ أن يتنكر في مظهر الضحية، لدرجة أن يظهر وكأنه قد جُرح بجرح مؤلم؛ لأن كلمة الفراق خرجت من فمها هي. بل وبالإضافة إلى ذلك يعمل على ألا تنسى ستسكو ولو للحظة أنها هي بنفسها من تلفظَ بكلمة الفراق. بنفس الوسيلة التي ظل يذكِّر بها ستسكو بوضوح أنها هي التي قالت كلمة الحب لأول مرة، وهي نفسها التي اقترحت الذهاب في رحلة معًا لأول مرة.

رأت ستسكو كل ذلك بوضوح وكأنها شخص قد وضع فجأة نظارته الطبية على عينيه. هذا الشاب الذي يخاف من ارتداد ستسكو عن كلمة الفراق التي تلفظت بها مرة، ويعاملها وكأنه يلمس ورمًا جلديًّا بالجسم. كان ينتبه متيقظًا جسديًّا ونفسيًّا لكيلا يؤخذ عليه ولو كلمة أو نصف كلمة كعهد أو وعد.

يحرك مقلة عينه بفكر ووعي عميقين، مثل الطفل الذي يمشي ممسكًا بكلتا يديه كوبًا قد امتلأ عن آخره بالماء، يحرص على ألا يسكب منه ولو نقطة ماء واحدة؛ فيشحذ أطراف أصابعه، ويخفض كعب قدمه ببطء شديد؟ … حتى تلك الكلمة قالها ببطء زائد عن الحد.

وعلى العكس كان لدى ستسكو التي جفت دموعها متسع لنفسها. وفكرت ستسكو أي وجه يا ترى سيُبديه هذا الفتى لو أنها قالت له الآن إن كلمة الفراق كانت مجرد مزحة ودعابة فقط لا غير.

بعد أن خرجا من الفندق، قال لها تسوتشيا نصائح عديدة بحنان ولطف خاصة بعلاج آلامها وأحزانها. قال لها إنه في حالة كتلك أفضل شيء هو البوح لطرف ثالث، ثم اصطحبها إلى البار الذي يعتاد الذهاب إليه ودعا المَدام صاحبة البار، وتناول الثلاثة عشاءً متأخرًا، وتحدث تسوتشيا بالتفصيل عن حالة الفراق في تلك الليلة، فبكت ستسكو مرة ثانية، وبكت المدام تأثرًا لبكائها، ثم ظلت تدعو تسوتشيا بالشرير مواسيةً ستسكو أنها ستعرف فيما بعد أن الفراق مع شخص كهذا هو ولا شك أفضل شيء. كانت تلك المواساة وذلك البكاء تأثرًا، ونعتُ تسوتشيا بالشرير عدو المجتمع، كل ذلك كان حبكة عادية، ولكن مع ذلك أحست ستسكو أن قلبها قد أصبح أخف وطأة من ذي قبل.

«هل اليوم هو يوم جذب الأصدقاء في التقويم؟ فهذه ثالث قصة فراق أسمعها. امرأة السيد «ن» كذلك جاءت إلى المحل وبعد أن بكت بكاء حارًّا حطمت ثلاث كئوس بأن قذفت بهم على أرضية المحل. مثل تلك المرأة بعد مرور يومين أو ثلاثة أيام ستنسى الأمر ولا كأنه كان، ولكن امرأة جميلة لطيفة مثلك مسكينة حقًّا، ولكن القرار الذي أخذتِه قرار عظيم. يجب أن تظلي بهذه المشاعر، وأن تصبحي أقوى وأقوى.»

شعرت ستسكو أنها مثل طفل صغير يتم مدحه ومواساته وتشجيعه، وأحست أن المواساة الممتازة لها هي التعامل مع أحزانها من خلال تنميط حالتها في قالب مشابه.

فجأة رفعت ستسكو عينيها وتأملت وجه تسوتشيا، وجه ذلك المراقِب المتواضع. كان يوجد هناك شيءٌ ما جديد وطازج. كانت عيناه ووجنتاه وشفتاه كل ذلك الآن قد خلع عنه العادات والتقاليد القديمة جميعًا وأصبحت وكأنها عيون ووجنات وشفاه رجل غريب لا تعرفه، واختفى كذلك الأسلوب المبتذل النمطي الذي كان كثيرًا ما يجعلها تحنق وتغضب، ونتيجة لذلك أصبح هو الآن يبدو وكأنه الإخلاص ذاته.

في وقت متأخر من الليل قال تسوتشيا إنه سيرافقها إلى منزلها، فأوقف سيارة تاكسي وركب معها، ولكن ستسكو أمرت السائق بالذهاب إلى مكان آخر. ذهبت أمام حديقة عامة كانا كثيرًا ما يتنزهان فيها، وهناك أنزلت تسوتشيا وجعلت التاكسي يرحل.

كانت ليلة باردة قليلًا رغم أنها من ليالي أبريل. ظهرت براعم زهور أشجار الجنكو المصطفة على جانبي الطريق. تلك البراعم أثناء النهار تغطي تمامًا الأفرع الرفيعة الدقيقة

الخارجة من جذع الشجرة الأسود العملاق، لدرجة أنها أصبحت تحجب الظلال البسيطة للجذع القوي، ولكن في الليل يختفي ذلك الحجاب ويبرز فقط الإطار العام الأسود الحازم كما هو في الشتاء، وذلك الآن يبدو كما هو، شجرة شتاء واقفة.

كانت طريق التنزه هادئة لدرجة موحشة.

أثناء سيرهما كتفًا لكتف صامتَين، أبطأت ستسكو من سرعتها كمحاولة لإلقاء اللوم على تسوتشيا لتسرعه في المشي؛ فمهما كان هو يريد السير مسرعًا أو لا يريد فقد أصبح ذلك بالفعل أمرًا لا يجب أن تكون له علاقة بستسكو بتاتًا، ولكنها أبطأت سيرها دون محاولة اللحاق به، وأخيرًا انتبه تسوتشيا لذلك فأبطأ من خطواته.

شكت ستسكو أنه كان يجب عليه الانتباه أسرع من ذلك ولكن ستسكو خلال الساعات الماضية كانت تدور حول أحد الشكوك وكان ذلك السؤال فقط هو الذي يتردد في قلبها: «هل معاناتي تلك خاصة بي أنا وحدي؟ ألم تكن كل الأحداث قد حدثت لي أنا فقط؟»

عندما تأكدت أن الفراق أخيرًا قد أصبح قريبًا أمام عينيها، فقدت القدرة في النهاية على التحمُّل، فلفظت بذلك السؤال على لسانها، ولكنها قد خففت من قوة تعبيره وعوجته قليلًا فبدا من النظرة الأولى كما لو كان سؤالًا مختلفًا، أو على الأصح بدا وكأنه محادثة ذاتية خافتة: «ألا تعتقد أننا كنا نحب بعضنا بعضًا حقًّا؟»

كان رد تسوتشيا متأخرًا. رفع ياقة المعطف الواقي من المطر وأدخل كلتا يديه في جيوبه وظل صامتًا على هذا الحال يسير خافضًا رأسه، وأخيرًا قام بالرد، وكان في كلمته تلك أقصى ما يستطيع من إخلاص بشكل مؤكد، وكانت ستسكو على استعداد تام أن تتقبلها كمشاعر حقيقية له.

«المؤكد هو أني أحببتك. ربما لن تصدقي أنتِ ذلك .. ولكن كلما مر الوقت بهذا الشكل، يزيد عدم تصديقك هذا .. ولكن رغم ذلك وبطريقتي الخاصة، عزمتُ على حبك حتى ما يقرب من أقصى قدرة لديَّ على الحب.»

لم يكن لدى الاثنين ما يفعلانه إزاء ذلك، ولكنهما تركا قبلة الوداع الأخيرة. قبلة قصيرة خلف ظل الأشجار. خرجا من هناك، وأوقف تسوتشيا سيارة أجرة. ولكن ستسكو لم تجعل تسوتشيا يركب السيارة وركبت بمفردها فقط .. وعلى الفور أسرعت السيارة بالانطلاق.

الفصل العشرون

ظلت ستسكو تنتظر الأيام يومًا بعد يوم. كانت تعتقد أن كل الجراح ستطيب وينفتح أمام بصرها عالم جديد.

ظلت ستسكو تنتظر. وهو انتظار يختلف عن حالة انتظار هدف ما معين، مما يجعل في الانتظار ذاته معاناة، وانعدمت القوة التي تسمح بمواصلة ذلك الانتظار. ومع قول ذلك، لم يصبح الأمر بسبب عدم وجود القوة أن عدم الانتظار يسوِّي الأمر. لا يمكن الهروب من معاناة الانتظار، ولكن يمكن القول إنه يمكن الآن تحمل تلك المعاناة رغم عدم وجود القوة. أصبحت ستسكو لا تشعر بأية قوة على الإطلاق داخل جسدها. حول جسمها طراوة ولدونة وكأنها توجد داخل سحابة، ولو حاولت أن تستند بيدها على ما يشبه الجدار، تمسك يدها بالهواء، ويوشك الجسد أن ينهار. ستسكو الآن توجد داخل هذا الوضع.

في الصباح التالي لفراقها مع تسوتشيا، وفي معرض تناولها للإفطار مع زوجها، رأت بوضوح.

لقد سوَّت في النهاية كل الأمور بدون أن ينتبه زوجها لأي شيء. يجب ألا يحدث ما يعكر صفو وجود هذا الزوج نهائيًّا .. عندما تفكر في ذلك، تحس ستسكو أن قلقها في السابق من عودتها إلى أحضان زوجها، أمر مُضحك. فلم يسبق أن بدا لها وجود زوجها بتلك الدرجة من الضعف والاستكانة كما كان عليه في هذا الصباح.

«تأخرت في العودة للمنزل ليلة أمس. لقد نعست قبل أن تعودي.»

«هذا الرجل دائمًا يكون نائمًا في أهم اللحظات بالنسبة لي.» هكذا فكرت ستسكو بامتنان. «من الآن فصاعدًا، أنا أيضًا سأنام. نعم يجب أن أنام بأي شكل.»

كلمة المعاناة ... إلخ، كفى! يجب ألا أومن بها ثانية. حتى أمس، كانت كلمة ضرورية للحياة. الآن أصبحت غير ضرورية بالفعل. يجب التطور وإلقاؤها في سلة المهملات، يجب ترتيب الأشياء التي لا بدَّ من ترتيبها. إذا كان الأمر كذلك، فلقد احتارت ستسكو في التسمية التي يجب عليها إطلاقها على الفراغ الكائن في قلبها الآن؛ فهو ليس معاناة، وليس ألمًا. وليس حزنًا، وبالطبع ليس فرحًا. يُعتقد أنه ما يشبه جمرات المعاناة، ولكنه ليس كذلك. لقد مرت المعاناة وانتهت بشكل مؤكد، ولكن المشاعر حاليًّا تتحرك بشكل مؤكد للأمام بدون إبطاء، مثل عقارب الساعة، وفقدت هذه المشاعر الصافية كل المعاني، عارية، حادة، سهل أن تنجرح، مرتجفة ... فقط تتحرك بدقة لا جدوى لها.

ورغم أنها تعتقد أنها تعيش بمشاعر حرة وفي أقصى درجات السلام، لكن صارت ستسكو فجأة تعنِّف طفلها كيكو بدون سبب، وتصبُّ جام غضبها على الخدم.

كانت ستسكو تسكن في عالم بلا صدى. تسكن في عالم لا يرجع منه أي صدى مهما بكت، مهما صرخت. صوتها الأجش يذهب بعيدًا، ويختفى بدون أن يرجع مرة ثانية، ولا يمكن أن تستدعي هذا الصوت مرة أخرى. كذلك يقوم أيضًا القلق بتحريضها لضرورة رفع النشيج التالي، الصرخة التالية، صوت النداء التالي، وأخيرًا، يجف صوتها، ولا تصبح قادرة على إخراج أي صوت بعد ذلك.

بدأ مرة ثانية وقت العصر الطويل يعود. صار مقعد الخيزران المجاور للنافذة الفرنسية قريبًا منها مرة أخرى، وبدأ تقليد التماثيل المنحوتة، وصارت وظيفتها هي قياس امتداد ظل الشمس وانحسارها في الحديقة.

تصير السماء يومًا بعد يوم ساطعة، وتخضر فروع الأشجار، ولكن لا تأتي الخضرة إلى الجسد الآدمي، ولكن وكما ترى صغار الطيور تقف على كتف التمثال المنحوت، ترى ستسكو أحلامًا أن صغار الطيور تأتي لكي تقف على كتفها وصدرها، وتتبادل الزقزقة بحرية وتتبرز بتلقائية، ثم أخيرًا تطير راحلة بعيدًا، وتفكر؛ يا له من شيء رائع لو استطاعت حقًّا أن تتقمص دور اللوحات إلى هذه الدرجة! في النهاية أخلفت ستسكو وعدها مع تسوتشيا بالتوقف عن تبادل الرسائل بينهما لعدة أشهر قادمة، وكتبت رسالة طويلة:

«**إلى السيد المحترم: تسوتشيا**

إن المعاناة التي عانيتها بعد فراقي عنك كانت معاناة أقوى بدرجة كبيرة للغاية عما كنت قد تخليتُها. لقد تنبهت إلى أي مدًى كنت أتوق إليك. أرجو أن تغفر

لي كتابة رسالة لكَ، مخالِفة للعهد الذي قطعتُه، رغم أني كنتُ قد عقدتُ عزمًا قويًّا على ذلك.

إن كتابة رسالة لكَ هي الطريقة الوحيدة أمامي لتوجيه الحديث إليك، وأشعر بالرضى والسعادة لأنك ستقرأ هذه الرسالة، ولكن رغم ذلك يجب عليَّ أن أجعلها الرسالة الأخيرة. في حالة الكتابة، سيكون على أن أستمر في الكتابة طوال عمري، وذلك لأن حبي لك سيظل مشتعلًا في قلبي حتى مماتي.

إنني أشعر الآن بهزة عنيفة تشبه تلك التي تحدث لسيارة كانت تسير بأقصى سرعتها ثم توقفت بضغط مفاجئ على مكابحها.

كنت أفكر خلال الأشهر الماضية بلا توقف في هذه اللحظة، ورغم أنه كان فراقًا أعددتُ له عدته؛ إلا أن الموقف الذي تخيلته في رأسي كان بعيدًا بعدًا تامًّا عما أعانيه حاليًّا من آلام. لقد أدركت بوضوح بعد فراقي عنك إلى أي مدًى كان حبي لك عظيمًا. إنني عشقتك، وحننت إليك. لقد كنتَ أنتَ ركيزتي، تركُز فيك روحي وكياني بالكامل.

ولكن مع ذلك ليس في الإمكان الآن عمل أي شيء، ومهما حدث يجب عليَّ تحمُّل هذه الآلام وحدي. بالطبع إن مواجهة هذه الالآم أمر يحدث لي للمرة الأولى، إنها حقًّا .. حقًّا .. آلام صعبة، ومرارة تجعلني أبكي وأبكي حتى تنهمر دموعي أنهارًا، ولكنها آلام تؤدي إلى سعادة كبيرة أنني أحببتك إلى هذه الدرجة.

عندما أتذكر الآن، فإن أيام الرحلة التي رافقتني فيها في شهر مايو من العام الماضي كانت هي قمة أيام سعادتي، ولكن من وقتها كنت أعرف أن لذلك نهاية، ولكن استطاعتي الاستمرار بعاطفة حبي لك على ما هي عليه من قمة السعادة، رغم أنه أمر مؤلم؛ إلا أنه كان أمرًا سعيدًا كذلك بلا شك.

لقد قلتَ إنه من الجيد أنه لم يكن فراقًا قبيحًا مليئًا بالوحل، وأنا أيضًا كنت أخشى ذلك بشدة. لقد عزمت على ألَّا أفترق عنك فراقًا كهذا. لقد ظللت أتمنى من كل قلبي أن نُبقيَ فقط على الأشياء التي تفيض جمالًا.

فربما ما يحدث لنا الآن هو الأفضل لنا، حتى لو كان آلامًا هائلة مثل تقطيع لحم الجسد. على أي حال لا سبيل إلا التفكير بهذه الطريقة والقبول بالأمر الواقع.

كان ما يصبِّرني حتى الآن هو التفكير أننا سنلتقي بعد عشرة أيام، سنلتقي بعد أسبوع، ولكن الآن ليس لديَّ ما أصبر عليه، بل وأصبح شوقي إليكَ أقوى

بكثير مما كان عليه فيما مضى، وصرت أتمنى لقاءكَ ولو لمدة خمس دقائق فقط، أتمنى رؤية وجهكَ ولو للحظة.

لقد رحلتَ من أمامي، ولكن كياني كله يفكر فيكَ، وتنهمر دموعي من أجلكَ، وعقلي لا يفكر في شيء سواكَ .. إنني أتجرع ببطء آلام الضعف الإنساني. ربما الفراق بسبب الموت أسهل في تحمله، ولكن الفراق أثناء الحياة شيء يصعب تحمله.

لا أستطيع شرح حالتي لمن حولي في المنزل مهما نظروا إليَّ نظرات الاستغراب، لا أستطيع الدفاع مهما أخطئوا فهمي، مهما كانت رغبتي في طلب النجدة لا أحصل عليها، لا يوجد أحد من معارفي يعرف ما في قلبي. إنني أريد الاستمرار في مناداة اسمك، وكذلك كما أفعل الآن أريد الاستمرار في كتابة الرسائل إليكَ، وحتى بعد أن تهدأ مشاعري ولو قليلًا، أريد الاستمرار في كتابة الرسائل لكَ.

لا توجد أي ضروريات لي سواكَ، أنتَ فقط من أريده بجانبي. لا أعلم كم من المرات التي رغبتُ فيها الذهاب مسرعة إلى حيث تكون، ولكن ذلك أمر لا يمكن فعله دون تحطيم ما يحيط بي، والنتيجة أنه سيكون هناكَ ضحايا كثيرون جدًّا بسببنا نحن الاثنين، وربما لن تكون هناك سعادة تنبني على تعاسة الآخرين. يبدو أنه لا توجد طريق أخرى غير أن أيئس أنا من كل شيء، وأقبل أن أكون أنا الضحية. لو تصرفتُ بصدق مع رغباتي فإن التعاسة ستنتشر بشكل كبير بين أناس لا يعرفون أي شيء عن الأمر. يجب عليَّ تحمُّل كل الآلام من أجل المحافظة على قراري هذا، بأي شكل كان.

إن مواصلة الكتابة أكثر من ذلك ستكون مجرد تكرار لنفس الأمر، ولكن عندما أفكر أن إمساكي بالقلم هكذا والكتابة إليك، هي الطريقة المتاحة لي حاليًّا للتواصل معك بشكل مباشر، يجعلني هذا لا أستطيع ترك القلم.

على الرغم من حبي لك حتى هذه الدرجة، كما ذكرت آنفًا، فإن الهزة الناتجة عن التوقف المفاجئ غير طبيعية، وتحملها حتى الآن أرهق أعصابي للغاية. إنها معاناة حقيقية.

ولكني سأواصل التحمل بكل ما أستطيع.

ولن أفعل أي تصرف غبي.

رجاء أخير، أكون ممتنة لو أمكن أن أتسلم منك رسالة أخيرة. رغم كل الصعاب، رغم كل الآلام، أشكرك من كل قلبي على الذكريات الممتعة العديدة التي طوقتني بها.

من ستسكو
إلى تسوتشيا أحب إنسان إلى قلبي

لم ترسل ستسكو هذه الرسالة، بل مزقتها وألقت بها في سلة المهملات.

(١٥ أبريل عام ١٩٥٧م)


هنـــداوي